

أنيس فهاو/



يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم



بلاد الله... غلى الله

كتاب اليوم

يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

رئيس مجلس الإدارة
محمود أمين العالم

رئيس التحرير
حسين فهمي

مدير التحرير
مصطفى طيبة

سكرتير التحرير
جمال عارف

مطابع الاختيار

أنيس خلدو

براد الله بخلق الله



إلى أى مكان..

في نهاية الليلة ٤٢٥ من ألف ليلة وليلة تتحدث شهر زاد
الى الملك شهريار عن رجل شيال اسمه السندباد الشيال .
وانه كان فقيرا ولذلك قرر أن يحمل ملبسه وينتقل الى أى
مكان . . وانتقل من بيته الى بيت آخر لا يبعد كثيرا عنه . .
ووضع الشيلة التي يحملها على كتفه فوق مصطبة . . ثم
جلس . وأحس أن نسيما عيلا وشذى جميلا يخرج من
فتحة الباب . . فاتجه الى الباب بانفه وشعر بالسعادة . .
وأدرك شهر زاد الصباح !

وشهر زاد لم تكمل القصة لانها - كعادتها - تريد أن يظل
شهريار ملهوقا على القصة الجديدة . . وبذلك يطيل عمرها
ليلة بعد ليلة . .

ولو كنت من شهريار لاكتفيت بهذا القدر . . فهذا الرجل
سندباد قد تحرك مسافة قصيرة فاستحق على هذه الحركة
التواضعة بعض النسيم والعطر . . وهذا يكفي مكافاة على
انه انتقل من مكان الى مكان . . أو فكر في أن يترك الارض
التي ضاق بها . . أو البيت الذي مل الإقامة فيه . . اننى
أرى أن هذه الليلة التي لم تكملها شهر زاد قد كلمت . .
فالرجل انتقل . وجلس وشم الهسواء والرائحة . .
وهذا يكفي !

وفي كل مرة ينتقل سندباد من مكان الى مكان يلقي المكافاة
السخية على ذلك . . مهما كانت مخيفة أو متعبة فهي لذينة
. . ويبدو أن سندباد لم يكن يتعب كثيرا ، كانه يعلم أنه ممثل

في قصة .. أو بطل مسرحية .. فكل مايعمله هو تمثيل في
تمثيل .. وهو من المؤكد محروم من الشعور الحقيقي بكل
ماهو جديد .. محروم من الخوف الحقيقي .. والعذاب الحى
.. وهو يرى أن كل جديد بلاء .. وأن كل مغامرة كارثة ..
وعلى الرغم من أنه ((يمثل)) في ألف ليلة وليلة ، فإنه يريد أن
يفرغ منها .. تماما كما لو كان مغامراً حقيقياً تعذب كثيراً
وينشد الراحة بعد ذلك !

انى لا أحسد سنبباد ..

فهو لم يستمتع بالتجربة الاولى .. والمفاجأة الاولى ..
والفرع الذى لاقرار له .. والحيرة التى لا حدود لها .. ولا
أحسده أيضاً .. فقد تمنيت أن يطول كل شيء .. فلا شيء
يخيف .. ولم يكن يعذبني في رحلاتي الكثيرة الا التعب ..
الذى يجعلني عاجزاً عن احتمال الخوف والصدمة والمفاجأة ..
ولو كانت لي قوة سنبباد وعضلاته وشهيته المفتوحة الى
الطعام وقدرته الفذة على أن ينام في أى مكان وفي أى وقت
لشربت مياه المحيط .. لكى أعبره بعد ذلك ماشياً على قدمي
.. ولنقلت الجبال ورددت بها الوديان لكى أتمشى على مهلى
من دولة الى دولة ..

انه لم يتعذب .. ولم يسعد بالراحة بعد العذاب .. انه
لم يعيش ، وانما كان يمثل دوراً في الحياة !

ولم يعجبني من كل مذكرات ((ماركو بولو)) التى أملاها في
سجنه في مدينة جنوة في نهاية القرن الثالث عشر الهجرى
العبارة .. ((وعندما عاد أبى وعمى من الصين .. كانت أمي
قد ماتت .. وكنت وحيدى في البيت وقد بلغت العشرين ..
وسألني أبى : هل تجيء معنا .. وكنت أنتظر هذا السؤال ..



وقد أعددت له إجابة مركزة : نعم - وأشار أبي وعمى الى أن استعد . وكنت قد أعددت كل شيء . وفي اليوم التالي اتجهت الى الصين . ولم استطع أن اصارح أبي بأنى قد نسيت معظم ملابسى . . من شدة الفرحة . . فارتديت ملابس والدى وعمى . . وكنت قد ارتديت ملابسهما قبل ذلك بسنوات : فقد كنت أحلم بما يحلمان به وأروى لنفسي مفامراتهما : لقد عشت حياتهما دون أن يعرفا ذلك . . فلم تبقى الا ملابسهما أيضا . . وارتديتها . . »

وأنت لن تعرف بسهولة تلك الجملة التى أعجبتنى وأضحكتنى وهزتني والتصقت فى نفسى وجعلتها برنامجا لكل رحلة : فالذى أعجبنى من كل صفحات ماركو بولو . . أنه نسي ملابسـه . . ولم يحمل معه شيئا منها . .

فهذا بالضبط ما أفعله بحكم العادة . .

ولا أنسى يوم سافرت لأول مرة الى إيطاليا . . ووقفت فى المطار أتحدث الى موظفى الجمرـك وكان بعضهم من تلامذتى فى الجامعة . . وطال الكلام وطال . . وسألنى واحد منهم :

وأين حقائبك ؟

قلت : لماذا ؟

قال : لكى نبعث بها الى الطائرة ؟

قلت : هذه ؟

وصرخ الرجل : معقول هذا ؟!

قلت : فقط هذه الحقيبة . .

وقد ظل الرجل يحدثنى طويلا ظنا منه ان حقائبي لم تحضر بعد . . ولم تكن غير حقيبة واحدة بها قميص

وينطلون وما كينة حلاقة وزجاجة كولونيا وثلاثة كتب .. لكى
أبقى شهرا فى إيطاليا !

ومرة أخرى لكى أؤكد لأصدقائى الذين أحسوا اننى سوف
أسافر بعيدا ، حملت حقيبتى الصغيرة معى .. وسألونى :
اذن أنت مسافر الى الاسكندرية .

قلت : نعم ..

قالوا : هذا واضح ..

وهم يقصدون ان الحقيبة صغيرة . وان الملابس التى بها
قليلة .. ولم اكن مسافرا الى الاسكندرية وانما كنت مسافرا
الى الهند ومنها الى استراليا .. الى اليابان وأمريكا .. وأكثر
من ٢٣٥ يوما متواصلة !

فأنا أضيق بأن يعرف أحد موعد سفرى فيضطر الى ان
يرهق نفسه بتوديعى .. كما اننى أضيق بالوداع .. وأضيق
بالاستقبال أيضا .. ولا أرى لذلك مبررا .. ولا أعرف
ما الذى يقال أو ما الذى أقوله ذهابا وإيابا ..

أو كأننى لا أصدق اننى سوف أسافر .. فإذا لم أتمكن من
السفر ، فلا أحد قد عرف ذلك .. مع أنه لم يحدث مرة
واحدة ان اعتزمت السفر ولم أسافر .. ولكنه خوف قديم
ثابت ليس له ما يبرره غير أن له تاريخا فى طفولتى .. ولم أفلح
فى التخلص من بقايا أوجاع هذه الطفولة بعد .. ولا أظننى
قادرا على ذلك !

ومرة ضاعت حقيبتى فى مطار فرنكفورت ..

ولا أعرف كيف ضاعت .. واعتقد اننى نسيتها فى الطائرة
.. فقد كانت حقيبة يد صغيرة .. وكان لابد أن أتخلف ليلة



في المانيا قبل سفرى الى السويد .. وفي هذه الحقبة كل
ملابسى الضرورية .. وهى قليلة جدا .

وذهبت الى مكتب شركة الطيران . ووعدنى الموظفون
بالعثور على الشئنة في أسرع وقت . وارسلوا برقيات
وانتظروا ..

وسألوا عن احتياجاتى الضرورية .. وعن محتويات الشئنة
بالضبط . وقلت - وأنا كاذب مع الاسف - : بيجاما صوف
وملابس داخلية .. ومناديل وجوارب وفوط وصابون
وامواس حلقة وعطور ومعجون أسنان ..

وبسرعة فوجئت بكل هذه الاشياء في غرفتى في الفندق
ومعها باقة ورد واعتذار رقيق من شركة الطيران وتجديد
للوعد بالعثور على شئنتى الضائعة ..

وشعرت بالخجل مرة أخرى لاننى تصورت ما الذى سوف
يحدث عندما يجدون شئنتى الصغيرة وليس بها سوى
بيجاما واحدة .. وقطعة واحدة من كل شئ وتمنيت ألا
يعثروا عليها أبدا ..

وسافرت وعدت .. وكانت الكارثة المروعة :

لقد وجدت الشئنة الملعونة في انتظارى .. وأنا عندما
كذبت كنت اتستر على فضيحة أخرى هى ان ملابسى قليلة
لأنذكر ! ..

هكذا .. أنا اذا سافرت لا احتاج الى أى وقت .. ولا لاي
استعداد نفسى .. فى أية لحظة أستطيع أن أزرر الجاكيتة

وأقفل باب المكتب وانطلق الى المطار .. أما الملابس فيمكن
الحصول عليها من الخارج .. أو يمكن غسلها في الفندق ..

وكل شيء بعد ذلك يهون . فالهم - دائما - هو السفر . .
هو الخروج . .

وليس السفر تغييرا لمكان المشى أو النوم أو الأكل . .
وانما هو تغيير للموقف . . تغيير للسمع . . جلاء للبصر . .
تجديد للرؤية . .

وعندما سافرت الى أوروبا لأول مرة لم يتسع وقتى لكى
أخبر احدا من الناس . . فقد علمت بالسفر فى الصباح . .
وفى المساء كنت فى المطار . . فى الجو . . فوق البحر الأبيض
المتوسط . . ومن الطائرة رأيت مدينة الاسكندرية لأول مرة
. . فلم أكن قد رأيتها هكذا كاملة جميلة من قبل . .

وعندما سافرت الى الكونغو قبل لى فى التليفون : تسافر ؟
قلت : طبعاً .

- ودون أن تعرف الى أين ؟

- لا يهم . .

- اذن الى الكونغو . .

- حالا . .

- اتجه الى المطار . .

واتجهت الى المطار وفى يدي صحيفة ((الاخبار)) وقد
لغفت بها قميصا وجوربا ومنديلا وكتابا . . !

وليس يحدث هذا فقط اذا ما سافرت الى الخارج وانما
اذا سافرت الى الاسكندرية . . كل ما أذكره هو هذه السرعة
فى السفر . . فى الانطلاق . . الضيق الوحيد الذى أشعر به هو



ملابسي التي لا يمكن أن تفارقني . . . ثم هذه السيارة أو الطائرة
التي ليست لها سرعة الضوء في الانتقال من شاطئ النيل الى
شاطئ البحر !

وفي احدى المرات دخلت الفندق وحجزت غرفة . . . ولما
سألني موظف الاستعلامات عن الشنطة . . . أدركت انني
نسيت الشنطة في القاهرة . . . أو نسيت ان أعدها . . . فقلت
له : حالا . . .

ونزلت الى الشارع وبحثت عن شنطة ووضعفت فيها ملابس
اشتريتها وعدت الى الفندق . . .

ولم أكد أنهى دهشة موظف الاستعلامات حتى جاء شاب
يقول لي أمامه : حضرتك نسيت بقية العشرة جنيهه . . . !

وعرف موظف الاستعلامات انني اشتريت الشنطة
وما بها . . . ومنذ لحظات . . . ولعله لم يفهم المعنى الحقيقي
وراء هذا التصرف . . . ولكن المعنى الحقيقي هو انني اذا قررت
السفر فمعنى ذلك أن تسافر نفسي . . . وروحي . . . عقلي . . .
أما هذه الأشياء الاخرى فتجىء في الدرجة الثانية وفي معظم
الاحيان لاتجىء !

وأجمل وأصدق وصف لي هو ما قاله الاب الفيلسوف
تايلار دي شاردان الذي كان أستاذا للعلوم في القاهرة في كتابه
الذي سجل به رحلاته الى بلاد الصين : انني أولد في هذه
الرحلات . . . انني أنظر وأنظر في جشع وشراسة . . . هذا هو
طعامي . . . ثم انني اذا شربت وارتويت وسكرت فليس من
الناس وتاريخهم ولا من النباتات والحيوانات . . . ولكن من
الضياء التي تتدفق في أعماقي » .

ويقول الاب دى شاردان : انها هذه النفس الغامضة . .
انها ((انا)) . . هذه ((الانا)) الغامرة . . الباحثة . . الانا التى
تريد أن تنهب الى أبعد مكان فى الدنيا . . الى أطراف كل شيء
. . وكل انسان . . وكل فكرة . . انها هذه الانا التى تريد أن
ترى أبعد . . وتسمع أعمق . . اننى أريد أن أعرف بصراحة
وبإيجاز ما الذى يكمن فى اعماق هذا الاناء الانسانى . .
ولما سئل هذا الفيلسوف العظيم عن سر سعادته قال : ان
الارض كروية !

فهى تدور ونحن ندور . .
لاهى تهرب من تحت أقدامنا . . ولا نحن نهرب من فوقها
. . وحتى عندما ننطلق بعيدا عنها قسنظل مشدودين اليها . .
وعلى موعد معها . . لكى نسافر من جديد . . نسافر فى
البر أو فى البحر أو فى الهواء . . بلا حقائق . . فالحقائق
لاتهم . . فنحن نحمل بين ضلوعنا شيئا أهم من الحقائق . .
نحمل الشوق الذى لا يخدم الى كل ما هو جديد : فى الارض
وفى الناس . . وفيما بين الناس . . فى كل أرض . . وبين أى
ناس . . فالارض لله . . والناس أيضا . . ولا فرق بين الناس
هنا والناس فى أى مكان . . فكل الناس ينشدون راحة البال
ويطلبون من الله أن يعطيهم المائدة ليهضموها الطعام . .
ويعطيهم الطعام لتهضمه المائدة . . ويعطيهم الحرية ليفعلوا
بما لديهم ما يريدون . . وأن يعطى الجميع سلاما فى النفس
وفى الحب وسلاما بين النفوس والعقول . .

فكل أرض لله . . وكل ناس مخلوقات الله . .
وكل رحلة هى فى بلاد الله وبين خلق الله !

أنيس منصور



كانت أقصر وأطول رحلة ..

وكانت أشدها حرارة ..

وعمقا .. أيضا !

الكونغو .. باللوغومبا



.. وقفرت إلى السرى !

اصطدمت

بأحد الناس فى مطار القاهرة .. وتلهفت على الاعتذار
له فاصطدمت بواحد آخر .. وعندما صدمتنى شخص
ثالث وجدت أن الفرض الذى يريح الانسان هو أن

يقول لنفسه ان كل الناس بهائم ..

ولم يكن هذا الفرض ظالما فمطار القاهرة مظلم والناس أشباح ..
ونصف هذه الاشباح جنود .. ونصف الكلام باللغة الانجليزية
ذات الخنافة المعروفة .. ولكن ليس هذا وقت ضبط الأنوف أو
اللسنة وما أعرف كم من هذه الكلمات التى أسمعها : انجليزى
وكم أمريكانى ..

فالمهم هو أن أجد لى مكانا فى الطائرة التى هناك .. والتى لا أراها
بوضوح ولا أعرف أحدا من ركبائها .. ولا أعرف ان كانت على استعداد
لأن تقبل مسافرا مثلى .. أو شحنة بشرية متجهة الى الكونغو ..

وحاولت أن أتجه الى مصدر الضوء فى المطار .. وحاولت أن
أختار شخصا اصطدم به لعل أرغمه على أن يقبل اعتذارى .. ومع
هذا الاعتذار أسأله : الى أين نحن مسافرون ؟ وفى أية طائرة ..
وفجأة أضىء جانب من المطار ..

وظهرت الطائرات ضخمة .. لونها أسمر .. كأنها اشتعلت فى
السماء .. وأنقذت فى آخر لحظة .. أو كأنها عندما احترقت
سقطت عليها الامطار بمعجزة .. ولذلك تحتفظ هذه الطائرات
بلون السحاب ولون الدخان .. وعلامات بيضاء هى امضاء البرق
على هذه الألواح القاتمة .. ولاحظت أيضا أن كل الذين التفوا حول
هذه الطائرة من الجنود المصريين الشبان المسافرين الى الكونغو ..
وهم جنود المظلات .. ولاحظت أيضا أن هناك سيارات اتجهت الى
هذه الطائرة .. ثم الى داخل الطائرة .. وكانت هذه أول مرة

أشاهد فيها عملية ابتلاع الطائرات الحربية للذخيرة والجنود والقنابل والديناميت وسيارات الجيب .

ولابد أن تكون هناك طائرات أخرى للمدنيين ..

فالمدنيون - مثل - لا تقوى أجسادهم التي اعتادت على المقاعد الجلدية والقطنية ، أن يتمددوا على الحديد .. والا أن يتراجعوا بمقاعدهم الى الوراء ويناموا في هدوء .. أو يصطنعوا النوم .. حتى تجيء المضيضة وتقول لهم : أصبحوا على خير .. وإذا كنتم في حاجة الى أى شيء فلا ترددوا ! ..

ومن المألوف أن يتردد الانسان في طلب معظم الاشياء .. لأن من حق المضيضة أن تنام هي الاخرى في مثل هذه الساعة من الليل .

وفي هذا الظلام لمست يدي يد أخرى .. واستسلمت يدي والتفت بسرعة حول الذراع الناعمة واتجهت أنا الى صاحبة الذراع وقلت : أين طائرتي يا مدموازيل !

فقلت المضيضة الانجليزية : أنت مطلوب في الاستعلامات ..

قلت : أنا بالذات ..

قالت : نعم ..

ولم أناقش طويلا ونحن واقفان في الظلام .. انما اختصرت الطريق وادخرت الكلام لكي أراها في النور أوضح وعلى مهل ..

وفي النور قابلني أحد رجال الجيش وسألني ان كنت أحد الصحفيين المسافرين الى الكونغو .. وسألني عن بقية الزملاء ... وبسرعة ظهر الزملاء .. وبسرعة سألني أيضا : أين الحكمدار ..

وكانت هذه أول مرة أسمع فيها كلمة « حكمدار » وأرى أن الموقف يقتضى أن أكون هذا الحكمدار . ووجدت الاجماع قد اختارني حكمدارا . وكلمة حكمدار عند العسكريين معناها : الشخص الذى يتلقى الأوامر ويبلغها الى زملائه ويتولى تنفيذها . وعلى الرغم من أن عددا أربعة . فأننا من الناحية العسكرية يجب أن يكون لنا حكمدار . وانتهزت فرصة تعيينى حكمدارا واعتذرت . وغضب الضابط لهذه الفوضى ورفض أن يبلغنا الاوامر التى لديه ..

ولم نعرف حتى الآن ما هذه الاوامر .. ومستحيل أن نعرفها ما دمت قد رفضت هذه الوظيفة ..

وفي آخر لحظة التقى أحد الزملاء بالضابط وقال له : انه في استطاعته أن يكون حكيما . وفرح الضابط لهذا الضبط والربط . . وجاءت التعليمات صريحة تقول : ان أحدا ليس مسئولاً عن سفرنا الى الكونغو . . وأنه مهما حدث لنا فنحن وحدنا المسئولون !

وكان هذا القرار مثل ستين قلة قناوى قد انكسرت وراءنا قبل أن تتحرك الطائرة . . أو بعبارة أخرى : في ستين داهية . . وألف نهار أبيض أن البلد قد تخلصت منا جميعا !!

وابتلعت هذه الامنية الغالية ونظرت الى الطائرة وهي تقذف اللهب . . وتعلقت عيني بالمواد المتفجرة التي امتلأت بها الطائرة . . ووجدت أن هذه الطائرة هي « الداهية » التي سوف نذهب بها ونذهب اليها . . وأنه من الممكن أن يكون النهار أبيض ألف مرة في لحظات اذا ما انفجرت هذه الطائرة في المطار وأستراحت البلاد منا .

وفي هذه اللحظة لم أكن أتصور أنني عبء على البلد لهذه الدرجة . . ولم أكن أتصور أن الخلاص مني يحتاج الى ثورة في الكونغو . . والى ارسال قوة من المظلات المصرية وقوات جزائرية وسودانية الى الكونغو والى طائرة ضخمة تسافر في ساعة متأخرة من الليل . . ولكن يظهر أن الانسان يعيش ويموت دون أن يعرف قيمته الحقيقية عند غيره من الناس !

ونظرت الى الطائرة المليئة بالمتفجرات وعرفت قيمتي الحقيقية . . وعرفت هذا القبر الطائر . . هذا الجحيم المنطلق . . وبسرعة تخلصت من أهميتي وقيمتي التي احتفظت بهما منذ تركت مكتبي في « أخبار اليوم » حتى جئت الى المطار . . وأحسست بشيء من الخفة . . وشيء من الحرية . . فالمطار أصبح بالنسبة لي منطقة انعدام الوزن والقيمة والاهمية . . وفي الظلام وبين الجنود وبين الاشباح اتجهت الى احدى الطائرات . . ووجدت الجنود قد حجزوا أماكنهم . . ملابسهم صفراء . . شبان سمر . . على وجوههم الارهاق . . وقد وضع كل واحد منهم بطانية عند قدميه . . وبروح شابة حلوة اتجهت العيون ناحيتي فيها اشفاق وفيها زمالة . . وأفسح بعضهم مكانا على أرض الطائرة . . نعم على أرض الطائرة . . فالطائرة لها أرض . . بل كل جدرانها أرض . . انها عارية تماما . جلد على عظم . . لا توجد بها قطعة خشب واحدة . . انها طائرة بلا موبيليا . . انها تذكرنا بأول طائرة ركبتها في حياتي سنة ١٩٤٩ عندما سافرت الى أوروبا فقد كانت مثل اللوريات ينقلون فيها الحيوانات

من شرق افريقيا الى غربها .. وكنا نجلس على أرضها .. ونمسك
في حبل يمتد من مقدمتها الى ذيلها .. وعندما كانت تهتز .. نهتز
أيضا كما يهتز حبل الغسيل فوق السطوح .. ويتساقط منا العرق
أيضا .. وعندما حاول بعضنا أن يعترض على هذه الطائرة قيل لنا
ما معناه : على قدر فلووسكم !

وعندما حاول بعضنا في ذلك الوقت أن يكون ظريفا مع قائد
الطائرة قائلا له : اسمع يا أسطى .. هذا الاتوبيس نمره كام ..
كان رد الكابتن : الاتوبيس ليست له نمره ، ولكن الركاب لهم
نمر على قفاهم !

أما هذه الطائرة الحربية فهي مختلفة تماما .. فلا توجد بها
حبال .. ولا أخشاب ولا أحد يعرف لها أسطى .. ولا كمسارى ..
ولا رقم .. ولا اتجاه ..

ولكن أحد الضباط أشار الى أن أركب السيارة الجيب الموجودة
في داخل الطائرة . ففي هذه السيارة مقعد من الجلد .. تصور !

مقعد من الجلد في داخل سيارة في داخل طائرة . انه يشبه
كرسيا نزع من صالون حلاقة ووضع على الرصيف .. فهو الكرسي
الوحيد .. وهو مطمع كل الجنود الذين تهالكوا على جدران الطائرة .

وباحساسى بأن هذا المقعد نعمة من عند الله .. اتجهت اليه بشيء
من الامتنان .. وهذا الامتنان جعل الصدمة التي هزت رأسي بعنف
وأنا أدخل السيارة ، نوعا من اللمس الرقيق . أو كانت هذه الصدمة
بسبب الحسد .. ثم حمدت الله عليها .. فهي أهون بكثير جدا من
الامنيات الرسمية التي تلقيتها في المطار .. فالمطلوب أن أروح على
مسئوليتي ، وألا أجيء على مسئوليتي .. وأن أموت على مسئوليتي .
فأنا القاتل والقتيل .. وأنا كالنار يأكل بعضى بعضى !

ولمست بسرعة باب السيارة .. أنه حديد جليد .. ولمست
الدريكسيون انه شديد البرودة .. وكذلك كل أجهزة السيارة ..
ثلج في ثلج ..

أما ملابسى فهي نصف ملابسى .. جاكته من تحتها قميص ..
وتحت القميص شبه قميص .. والقميص مفتوح فأنا أضيق بالكرافطة
.. وأضيق بالحزام .. وأضيق برباط الجزمة وجلدة الساعة ..
ولو كان الامر بيدي لنزعت الزراير .. وتحولت ملابسى كملابس

الاحرام .. ولكن فى تلك اللحظة تمنيت أن أجد مع الجنود ابرة
وفتلة لأسد كل هذه الفتحات .. فقد لاحظت أن هواء باردا يهب
من تحت المقعد .. وتلمست بنظرونى فوجدته سليما .. وليسبب
لا أعرفه أحسست أن الهواء البارد قد أخذ يدور حول جسمى ..
ويتجه بأحكام شديد الى أنفى .. وعطست .. وهذا طبيعى ..
فأنا يكفينى جدا أن ألمس شيئا باردا لأصاب بالزكام .. فأنا مزكوم
دائما ولكنى أبحث عن فرصة .. وجاءت الفرصة الحديدية ..
وعطست .. وانزكمت .. وانسد أنفى .. وانسدت منافذ الطائرة
.. وأقفل أحد الاشباح بطن الطائرة .. ودارت المحركات ..
واستسلم كل الحاضرين .. فلا شيء يملكه الانسان فى طائرة الا
أن ينظر الى السقف ..

ونظرنا الى السقف وتفادينا النظر بعضنا الى بعض .. فليس
هناك ما تراه فى وجوه الآخرين انها صورة لا نجبهامن القلق والخوف
وشىء من الذل .. ومقاومة خفيفة يمكن أن تسببها : الامل أو التوكل
على الله .. مع شىء تافه اسمه : الثقة بالنفس ..
وبسبب هذا الافلاس المعنوى لا ينظر أحد الى أحد .. ونرى فى
السقف متسعا للجميع ..

ولا أعرف ان كانت محركات الطائرة التى لم أرها قوية جبارة ..
أو أن محركاتها عادية جدا ولكن صوتها يدوى لعدم وجود أية طبقة
عازلة من الخشب أو من الزجاج أو الفبر .. ان صوت الطائرة رهيب
.. انها تأكل نفسها .. انها تزمجر .. انها تريد أن تتحرر من
شىء .. من جاذبية الارض .. من الليل .. من الظلام .. ان
المحركات نفسها تريد أن تنفلت من الطائرة .. ليتها تفعل ذلك ..
فرغبته فى اكمال الرحلة التى لم تبدأ قد ضعفت .. وأية محاولة
منى للخروج من الطائرة الآن مستحيلة .. ولا يوجد أى عذر .. فلا
أستطيع أن أظاهر بأننى نسيب شنتطى أو جواز سفرى .. أو أن
شخصية هامة كانت تنتظرنى ونسيت أن أودعها .. كل هذه
الاعذار والالوهام قد تجملت فى رأسى بسبب البرد .. وكلها قد
طحنتها المحركات وتحولت الى قراب تطاير والتصق هو أيضا
بالسقف ..

وتحركات الطائرة كما يتحرك لورى فى طريق زراعى غير مرصوف
.. يبدأ من القاهرة وينتهى فى الكونغو فى قلب أفريقيا ..

ومن الغريب أن الوقت لم يتسع لأعرف الى أين أنا ذهاب .. ولا

كم طون المسافة .. ولا كم ساعة نقطعها .. ولا ما هو أول مطار ..
ولا كم يوما سنبقى هناك .. لا شيء .. لا معلومات .. لا فلوس ..
لا ملابس .. وكل ما عندي من معلومات هو هذا الحوار القصير الذي
أعتر به وأردده كلحن جميل .. أما هذا الكنز المعنوي فهو :

— هل تسافر الى الكونغو ؟

— نعم !

— الآن ..

— فورا !

— أنا كنت متأكدا من ذلك !

— شكرا !

انتهى الحوار .. ولكنه لم ينته في أذني .. انه يتردد مدويا
كالاجماع في جلسة برلمانية .. لا أقابله الا بالسعادة لهذه الثقة
الغالية ..

ولكن هذه الثقة الغالية مثل بلوفر أضغه على قلبي .. تحت جلدي
.. آه لو كان يلتف حول جنبي من ناحية اليمين .. ناحية المصران
الغليظ ..

.. فقد اكتشفت في هذه اللحظة أن في الجانب الايمن من بطني
يوجد كتكوت ينقر .. كأنه في بيضة .. ومن الغريب أن الكتاكيت
لا تخرج من البيض الا في الدفاء .. ولكن هذا الكتكوت لا يخرج الا
عندما يكون هناك برد شديد كالذي أقرفص فيه الآن ..

وارتفعت الطائرة .. وانخفضت زمجرة المحركات قليلا ..
ولكن الطائرة ضخمة .. راسية في الجو .. لا تهتز .. هكذا قلت
لنفسى مطمئنا .. ومهدئا ..

وكلما ارتفعت في الجو .. ارتفعت درجة الحرارة .. وارتفعت
كأننا كنا تحت خط الاستواء .. ثم اقتربنا .. وكان خط الاستواء
فوق في السماء

.. ثم تحولت الحرارة الشديدة الى هواء ساخن .. هواء من نار
.. لقد تحول خط الاستواء الى خط نار .. ولاحظت أن الجنود
الذين حولي .. بدأوا يفكون زراير قمصانهم .. وشعرت بالارتياح
.. فان هذا الهواء الساخن قد انقذني من زمهير السيارة ..

ولكن رأسى اصطدم بالسيارة عندما خطرت لى فكرة أن هذه الحرارة من الممكن أن تؤدي إلى انفجار الديناميت والبارود والقنابل التى امتلأت بها الصناديق التى أمامى وورائى .. ثم ابتلعت ريقى وسكت . وكان رأسى عندما اصطدم فى السيارة قد سحق هذه الفكرة السخيفة التى أفزعتنى ..

ولاحظت أن الطائرة تهتز .. وانها تهبط .. أو هكذا توهمت .. والتفت حولى لاتأكد من شعورى .. ووجدت الوجود كلها تؤكد ان الذى أحسست به صحيح .. فالطائرة اتجهت الى الهبوط .. مع أننا لم نترك مطار القاهرة الا مدة عشر دقائق ..

وقيل فى المطار أن أجهزة التكييف فى الطائرة قد فسدت . ولا بد من اصلاحها ..

وجاء هبوط الطائرة يؤكد لنا أن هناك حرصا من جانب أحد من الناس على أن نعيش أو على أن يعيش هو .. فقائد الطائرة الذى لم أره لا يريد أن يموت لا هو ولا غيره .. ومن أجل ذلك عاد الى الأرض ليصلح الجهاز الذى اختل ثم يستأنف رحلته الى أواسط أفريقيا ..

وارتفعت الطائرة : . وكلما ارتفعت ازدادت درجة الحرارة انخفاضا .. شىء عجيب .. كان خط الاستواء المرسوم فوق مصر قد تحول سرا الى منطقة قطبية جليدية .. وبدأت انطوى على نفسى .. أو على الأصح التوى على نفسى .. واضع يدى على بطنى .. وعلى جنبى الايمن .. وأتفادى أن يصطدم رأسى بدريكسيون السيارة التى اتخذت وضعاً مخالفاً للطائرة .. فالطائرة تتجه بمقدمتها الى الجنوب .. الى الكونغو والسيارة تتجه بمقدمتها الى الشمال الى القاهرة .. فأنا أركب سيارة لا تتحرك ومع ذلك تطير بسرعة .. ٥٠٠ كيلو فى الساعة .. وفى درجة حرارة قريبة من الصفر ! .

وكانت سعادتى لاحد لها عندما شعرنا جميعا بنفس الاهتزاز والدوران .. وهبطت الطائرة الى أرض المطار .. مرة أخرى . لكى يتم اصلاح أجهزة التكييف .. وهبطت الطائرة .. وهبطت أنا فى مقعدى .. وهبط قلبى فى قدمى .. وأصبحت حياتى شيئاً عند قدمى لا يساوى أن أحرص عليه .. فقد وجدت الى جوارى شبانا مواطنين شجعانا ذاهبين الى أرض مجهولة .. يدافعون عن قضية الحرية .. وقضية الشعوب التى لا يعرفونها والتى لم يروها ولم

يعرفوا لغتها .. وأحسست أن مشاعري هذه نوع من الترف ..
وان سلامتي نوع من التعالي .. وان مخاوفي طفولية .. ولم
أبرح مكاني ..

وبعد نصف ساعة استفرقتها في معاتبة نفسي وعقابها ، قامت
الطائرة .. وقد تغير كل شيء فيها .. صوتها .. هواؤها ..
جوها .. طعمها .. فقد اكتشفت فجأة أن في فمي لبانة . وان
هذه اللبانة قد التصقت في جدار فمي .. كأنها هي أيضا خائفة ..
ومع حركة المضغ ارتفعت معنوياتي .. وتغير طعم الدنيا على
لساني .. والآن أخذ يتغير لونها أيضا .. فالآن أرى بوضوح كل
هؤلاء الجنود بملابسهم الصفراء . وقد تجاوزوا ومالوا بعضهم على
بعض .. وناموا .. أسلحتهم في أيديهم .. وذخيرتهم
تحت أقدامهم ..

وخرجت من سيارتي ، كما يفعل رواد الفضاء ..

واقتربت من أحد الجنود وسألته ان كانت معه كوتشينة فقال
وكأنني أنقذته من بحر من الملل العميق : معي .. تلعب كوتكان !

وبسرعة رددته الى حالة الملل : لا أعرف غير لعبة الكومي !

ورجعت الى مكاني من السيارة .. لا أنا أريد أن أعرض عليه أن
يعلمني الكوتكان .. ولا هو يريد أن يلعب الكومي .. ولا حتى في
الامكان أن نشترك جميعا في لعبة الشايب .. !

ونظرت الى ناحية أخرى .. كما تنظر سمكة الى سنارة مع
فارق واحد أنني أبحث عن الذي ينقذني أيضا من ماء له رائحة
كريهة .. ووجدت شابا على وجهه ابتسامة مرعبة .. وخرجت
من السيارة وتساندت عليها وعلى جدار الطائرة وقلت له : يبدو
انك عاجز عن النوم !

وبسرعة عدت الى مكاني فقد كان نائما وهو مفتوح العين .. !

اذن فالطائرة سجن حقيقي .. المسافات كلها قريبة .. لاضوء
.. لا حركة .. لا حرية .. لا كلام .. مع كل هذا العدد من الناس
شعرت بوحدة فظيعة .. ومع كل هذه المواد الملتهبة أشعر
ببرودة فظيعة .. ومع كل هذا الارتفاع اشعر كأن الطائرة تزحف
تحت الارض .. والليل طويل .. ويبدو انه ليل دائم .. فالطائرة
بلا نوافذ .. أو على الاصح لم أجد لها نافذة .. وحتى اذا وجدتها
فلا معنى لها ..

وأغلب الظن اننى نمت . .

وفتحت عيني على ضوء قريب الشبه من ضوء النهار . . او هو
ضوء النهار . . وسمعت عبارات قريبة جدا من : صباح الخير . .
صباح النور . .

طلع النهار . . والشمس بدأت اشعتها تصبغ الطائرة بلون النار
وقالوا اننا امضينا في الجو ثلاث ساعات . . وقالوا خمس ساعات
. . فلا معنى للزمن . . ولا معنى لما نقول . . فنحن شحنة في لوري
جوى . . والسائق هو وحده الذى يعرف مصير هذه الشحنة . .
وان كنا نحفظ ببعض المعلومات الاولية . . ومن بين هذه المعلومات
اننا في الطريق الى الكونغو احدى المستعمرات البلجيكية والتي تبلغ
مساحتها حجم بلجيكا ٨٠ مرة . . والتي عدد سكانها ١٣ مليونا . .
والكونغو في حجم الهند التي يبلغ عدد سكانها ٥٥٠ مليونا . . ولذلك
يمكن أن يقال أن الكونغو « دولة » خالية من الناس . . ولذلك
سوف تكون مفاجأة كبرى أن نجد أحدا في أى مكان . . فالرجل
الانجليزى الذى اكتشف الكونغو في سنة ١٨٧٥ اندهش جدا عندما
صادف في غابة شاسعة أربعة أشخاص . فقد أعلن أنه قابل مظاهره
من المواطنين !

والكونغو هى أكبر « عزبة » عرفها الانسان . .

فقد كانت الكونغو من الممتلكات الشخصية لملك بلجيكا . ومساحة
العزبة حوالى مليون ميل أى نصف مساحة القمر . . ومن الغريب
أن الذى اكتشف الكونغو ليس بلجيكي . . والذى يملك الكونغو
أيضا ليس بلجيكي . . فالذى اكتشفها صحفى بريطانى اسمه
جورتون ستانلى . . وملك بلجيكا المانى لم ير هذه البلاد . . ولم
يفكر في أن يزورها . . وانما كان مشغولا بامتصاص اموالها . وكان
هذا الملك نموذجا لدناءة الانسان ووحشية الرجل الابيض . .
فقد ارتكبت في الكونغو مذابح ليس لها نظير في التاريخ . . فقد كان
من حق الرجل الابيض أن يقطع ذراع وساق أى رجل من الكونغو
لاى سبب . . وكثيرا ما كدس الرجل الابيض عددا كبير من اطراف
المواطنين للارهاب . . وظل هذا الارهاب الوحشى زمنا طويلا لا يدري
به أحد . . ولكن عندما بلغت القارة الاوروبية والعالم المتحضر انباء
الملك المتوحش ، فزع الضمير العالمى . . ولم يكن هذا الفرع معناه :
الدعوة الى تحرير افريقيا من الاستعمار . . وانما كان معناه فقط
أن يكف الملك ورجاله عن هذه القسوة ولكن أن يبقوا في مكانهم . .

فبلجيكا كغيرها من الدول الاستعمارية تملك مساحات شاسعة ..
وفرنسا تملك أرضا في حجم فرنسا نفسها ٢٣ مرة وبريطانيا تملك
أرضا في حجم بريطانيا ٣٠ مرة .. والبرتغال تملك أرضا في حجم
البرتغال ٢٠ مرة .. فالمطلوب هو أن يفصل البيض أيديهم من دماء
السود فقط ..

ولكن ان تظل اقدامهم في كل مكان .. يستنزفون دماء القارة
السوداء التي تتفجر بالنور والنار أيضا ، فأفريقيا تنتج ٩٨٪ من
الماس العالمى و ٢٢٪ من النحاس واليورانيوم و ٦٠٪ من
الكاكاو و ٦٠٪ من زيت النخيل .. وعند سكان افريقيا حوالى
٢٥٠ مليون نسمة وبها ٧٠٠ لغة وفيها ٩٠ مليون مسلم و ٢٢
مليون مسيحي والبقية من الوثنيين .. وكانت افريقيا المركز
الوحيد لتجارة الرقيق التي ابتدأت في سنة ١٥٢٠ عبر المحيط
الى امريكا ..

والفيت دوليا في سنة ١٨٠٠ .. ولذلك فحوالى ٢٤٪ من
الشعب الامريكى من الزنوج .. والزنوج قد اختلطوا بالبيض في
امريكا اللاتينية ..

وقد أرغم الملك ليوبولد على أن ينزل عن عربة المليون ميل الى
الشعب البلجيكى في سنة ١٩٠٨ ومات الملك بعد ذلك بعام واحد ..
اما مكتشف الكونغو فقد مات قبل ذلك بأربع سنوات ..

وما تزال الطائرة معلقة في الهواء .. ومن الطبيعى ان تبقى كذلك
فلا علاقة بين رغبتى في أن أصل الى الكونغو وبين الطائرة .. فهى
في الطريق الى المكان الذى لا أعرفه .. وأنا أحاول أن أتسلى بشيء
.. ولم أجد ما أتسلى به .. لا أحد أتحدث اليه .. ولا كتاب
ولا ورق .. ولا قلم .. ولا خريطة .. ولا رغبة في أن أفكر في أى
شئ .. فأفكرى أكثر انكماشاً من جسمى .. وعقلى مشغول
بمصرانى الاعور الذى تحول الى وخز ابرة .. ثم وخز مسمار بارد
.. ثم مسمار محترق .. ونظرت الى أحذية الجنود الضخمة ..
ووجدت أن هذا الحذاء هو أعظم مخبأ للأصابع والقدمين من
البرودة الموحجة .. أما أحذائى فأقرب الى شبشب الحمام ..
وأما جواربى فهى أقرب الى الجوانتيات .. وأما أنا فأقرب الى
الحفاة العراة .. ولا بد أننى ساكون أكثر الجميع خفة عندما نصل
الى الكونغو الحارة .. ولكن متى نصل ..

وكان الطائرة استمعت الى مايدور في رأسي .. فاتجهت الى الارض .. تحاول الهبوط .. وهبطت على أرض الخرطوم .. وفي ساعة مبكرة دافئة ..

وفي مطار الخرطوم كانت الوجوه مستريحة مرحة .. انهم ناموا وقاموا وشربوا الشاي الذي أحلم به .. وكانت سيقانهم ممدودة طول الليل .. وأذرعهم مسترخية .. وأشعلوا أنفود الكبريت بلا خوف .. واطفأوها تحت أقدامهم بلا خوف .. وأعدوا لنا هذه الابتسامة السخية اللامعة .. وهذه الابتسامة هي ثمرة للنوم والراحة والماء البارد والافطار وعدة أكواب من الشاي والسجائر والمشاركة العاطفية والوطنية لثورة الشعب في الكونغو ضد الاستعمار البلجيكي .. ضد الاستعمار .. وكأنهم يكلفوننا في أول لحظة التقينا بهم في مطار الخرطوم أن نحمل تحياتهم الى لومومبا الذي يجاهد هو وعدد قليل من المواطنين ضد تشومبي وغيره من العملاء .. وأنصار لومومبا في بلاده قليلون ولكنهم في العالم كله ألوف الملايين ..

ولا أزعج انني تلقيت هذه المهمة بارتياح .. فقد كنت مهموما بساقي وبطني .. ومتطلعا الى الدخان الذي يخرج من كوب شاي .. ولكن عندما دخلت الى المطار وجدت عشرات الاكواب .. وكان معدتي قفزت بين أصابعي فمددت يدي الى كوب من الشاي دون أن استأذن من أحد .. وفوجئت بأن أحد القوانين المعروفة كان ضمن الذين نهضوا في الصباح المبكر .. فالقانون اسمه : تقسيم العمل .. فأنا عندما مددت يدي .. امتدت يد أحد الجرسونات تمنعني من تقديم فنجان شاي الى نفسي .. فهذه مهمته هو .. أنا اطلب وهو يقدم .. فاذا قدمت لنفسي فنجانا من الشاي فقد ألغيت وظيفته واعتديت على قانون تقسيم العمل .. واحترمت نفسي والقانون .. وجاءني الشاي البارد وابتلعتة وأنا أغلى من الفيظ !

وأحسست أن هذا الفنجان مكافأة هزيلة لا تتناسب مع العذاب الذي لقيته من القساسة الى الخرطوم .. وقررت أن أتبنى هذه القضية التي فرضت نفسها فرضا : هل من حقي أن اطلب فنجانا آخر من الشاي الساخن جدا حتى اذا كان ذلك اعتداء على قانون الذوق العام وقانون تقسيم العمل وقانون البيع والشراء مع ملاحظة أنني لا أملك مليما واحدا ثم ان هذه التحية التي ترجمتها على أنها تحية الى لومومبا من شعب السودان الا استحق على حملها فنجانا من الشاي الساخن .. ما أعظم الرسالة وما أتفه الاجر ؟!

ونفضت كأي محام في محكمة النقض وجعلت ذراعى اليسرى ملصقة بجسمي كأنها تقبض على ملف القضية وذهبت الى الجرسون وقلت : بل أريد الشاي ساخنا .. أريده يغلي كالثورة في الكونغو .. وفي كل أفريقيا !

(وكأي) محام لا يتكلم في الموضوع لم يستمع مني الجرسون .. وتركني أستمع في الكلام عن نفسي وعن غيري وجاء الشاي الساخن .. واختفيت به في مكان من مطعم المطار .. وصبيته في أعماقي .. في أمعائي .. وسكت الكتكوت في مصراني الأعور .. وسجلت في تاريخ حياتي : ان هذا هو أجمل وأمتع فنجان شاي شربته في حياتي

وبعد هذا الدفاء في جسمي .. وفي الجو .. وبعد ان امتلأت الدنيا بالشمس .. اكتشفت أن في داخل الطائرة عددا كبيرا من النوافذ .. ومن هذه النوافذ رأيت أفريقيا ذات الغابات الكثيفة .. الشاسعة .. وبدأت أرى بوضوح نهر النيل وفروعه .. ومسطحات مائية واسعة .. وبعض أصحاب العيون القوية بدأوا يتبارون في معرفة بعض الحيوانات المتوحشة على الأرض .. وتحولت الرحلة الى مباريات في دقة النظر .. ومدى القرب أو البعد من الأرض .. وما الذي يحدث لو سقطت بنا الطائرة .. وأصبحت ضحية لذباب تسي تسي .. - والحقيقة أن هذا الدباب ليس في السودان .. ولكنه في تنزانيا وأنه المسئول عن هلاك ملايين من قطعان الماشية ومئات الألوف من الناس .. فهذه الذبابة تنقل النوم الى الجسم الذي تلسعه .. فينام حتى الموت .

وعلى الرغم من تشابه الأرض الخضراء تحتنا فان أحدا لم يمل النظر اليها ..

ولم أتمكن من رؤية منابع النيل . فقد كان لابد أن أكون على الجانب الآخر من الطائرة . ولم أستطع أن أتحرك ولا أن أراحم الجنود .. ولا بد أنني سوف أراها عند العودة . وتمنيت أن تكون عودتنا نهارا !! .

وبعد أن اطمأنت نفسي الى أن الطائرة بخير .. والى أننا قريبون من الكونغو .. أسندت رأسي الى يدي .. واستعرت إحدى البطانيات وتغطيت ونمت في حراسة ضوء النهار ومرح هؤلاء الجنود .. وصحوت ، وألصقت خدي بالنافذة .. فالطائرة تهبط ..

وتقترب من الأرض الخضراء الواسعة الشاسعة .. ولاشيء يدل على
أن هناك أحدا من الناس .. لا بيوت .. لا طرقات .. بل المطار
نفسه لا ندري أين هو .. لا مطار .. وهبطت الطائرة على أرض
مستوية .. أرض مغطاة بالعشب الأخضر ..

هذه إذن هي الكونغو .. هذا الأخضر الواسع .. هذه
الغابات العالية الكثيفة المظلمة الصامتة .. والتي تخفى عددا من
العيون السوداء التي لا تراها .. والتي تستتر على عدد من الأقزام
وعلى عدد لا نعرف مداه من أكلة لحوم الإنسان .. وغير ذلك من
الأوهام والمخاوف التي تشيعها الغابة في كل من ينظر إليها ..

وأذكر أنني عندما دخلت مطار الخرطوم لقيت أحد كبار الضباط ..
وقد صافحني بحرارة من يعرفه .. والحقيقة أن أحدا لا يعرف
الآخر .. ولكن المعنى العام معروف لدى كل منا .. فنحن ضمن
القوات المصرية المسافرة إلى الكونغو .. وهذا يكفي .. وانتهزت هذه
الابتسامة لأفتح معه حوارا : كانت الرحلة صعبة ..

ولم يرد وإنما ازداد عدد الاسنان البيضاء اللامعة في فمه ..
وعدت أقول له : ولكن ربنا كبير .. فقد عدنا إلى القاهرة
مرتين .. في المرة الأولى ..

فقال : بلغنى ذلك .. والحمد لله على السلامة ..

وقلت متشجعا وأنا أريد أن أعرف : كم عدد الساعات التي
بقيت حتى نصل إلى الكونغو ؟

وضحك بالفعل : لا أحد يعرف .. فالكونغو واسعة جدا ..
ووجهة هذه الطائرة سر عسكري .. وإذا هبطت الطائرة في إحدى
الغابات ووجدت الذين يتفرجون عليكم من الأقزام فمعنى ذلك
أنكم في شمال الكونغو .. أما إذا كانوا عاديين فأنتم في أي
مكان آخر ..

ومعنى ذلك أنني يجب أن انتظر أبناء الغابة ليخرجوا .. وأحسب
أطوالهم لأعرف أين نحن من هذه البلاد الهائلة .. ولم يظهر
أحد .. لا أحد .. لا ناس .. لا بيوت .. لا حيوانات ..
لا حشرات .. لا فراشات .. فالصمت دافئ .. والرطوبة
كثيفة .. وكل شيء ماضٍ في حياته .. ونحن فقط دخلاء على
ملايين الملايين من الأعشاب والأشجار ..

ولم يكن عند الجنود وقت للتأمل .. فعندهم مهمة عاجلة .
ولذلك تطايرت البطاطين والصناديق .. وأدبرت محركات
السيارات الجيب وهبطت من الطائرة .. والتف حولها الجنود ..
وركبوا السيارات .. واستعدوا واصطفوا .. وصدرت اليهم
أوامر وتحركوا واختفوا .

وفي مقدمة الطائرة رأيت قائدها الأمريكى . وفلتت منى هذه
العبارة : يا ابن الاية ؟

فقد كان يمسك سندوتشا ضخما فخما وسيجارا كوبيما محترما
وزجاجة بيرة . وكأنه أحد المسافرين بالدرجة الأولى فى طائرة
مدنية . فلا أثر للتعب أو الأرق على وجهه .. ولم تطاوعنى نفسى
أن أسأله عن موعد العودة . فقد أحسست أنه استغفلنا : ركب
هو فى الجانب المدنى وتركنا نحن فى الجانب العسكرى من الطائرة ..
بلا كوب ماء .. ولا كوب شاي .. ولا كلمة .. وظل يفعل بنا
ما يشاء ..

وجاء أحد ضباط الأمم المتحدة وطلب إلينا أن نركب طائرة
عسكرية صغيرة تنقلنا الى مدينة كوكياتفيل .. وهذه هى أول
مدينة فى الكونغو نذهب إليها .. أما هذه الأرض التى هبطنا إليها
فليس لها اسم .. وإنما لها رقم فقط ..

وكانت الطائرة الصغيرة مريحة ..

وكان قائدها بلجيكيًا . وهذا مجرد استنتاج .. لأنه لا مبرر
للغضب الشديد على وجهه . ولا مبرر للغضب الذى ينظر به إلينا ..
ولا لتجاهله الأسئلة الكثيرة التى نوجهها إليه إلا أن يكون بلجيكيًا !

وكانه اختصر المسافة المطلوبة فأنزلنا بسرعة فى أرض ملساء
خضراء .. وتركنا نلقى بأنفسنا من الطائرة . وظل هو فى مكانه
من الطائرة . ولا كلمة . ولا إشارة . ولا نظرة . وأنزلنا فى أرض
لا نعرف فيها أحدا .. ولا يعرفنا فيها أحد ..

وركبنا سيارة من سيارات الأمم المتحدة ومعنا أحد الضباط
المصريين الذى سبقنا الى هذه المنطقة .. ووجدنا أمنا مطعما .
فدخلنا . ومقاعد فجلسنا . وعلبا محفوظة فامتدت أيدينا . وفتحنا
العلب .. وبدأنا نأكل ..

والمطعم مهجور . ليس به موظفون . ويبدو أنه كان مملوكا

لأحد البلجيكيين الذين هاجروا • وواضح جدا أن المكان مهجور •
وكل ضابط أو جندي يسمح بمنديله مقعده • ويمد يده إلى أكداش
العلب ويأخذ ما يريد ويلقى بالعلب الفارغة في أى مكان • ولذلك
فالمطعم ملىء بالفارغ والمليان ••

وكانت العلبة الأولى : تونة •• وكانت العلبة الثانية :
فاصوليا •• والعلبة الثالثة : فاصوليا •• والعلبة الرابعة :
أناناس •• والعلبة الخامسة : خبزا •• ولا توجد أطباق أو شوك
أو سكاكين أو أكواب •• وامتدت أيدينا إلى كل شيء •• وأكلنا
كل شيء •• ولا طعم لأى شيء •• فليس هذا وقت تذوق الطعام ،
وانما هو وقت ملء المعدة بالطعام •• وبعد لحظات اكتشفت أن
أصعب شيء فى هذه البلاد التى لا تتوقف فيها الامطار هو الحصول
على كوب ماء ••

ووجدت أن المواطنين وهم يتكلمون الفرنسية التى تبعت على
الضحك •• فهم يغيرون بعض الحروف اثناء النطق •• فحرف
« الجيم » يصبح حرف ذال •• وحرف الالف يختفى •• أو يصبح
حرف باء •• وحرف الميم يصبح حرف نون •• وكل هذه التغيرات
مقبولة على العين والرأس بشرط أن تؤدي فى النهاية إلى كوب ماء !
ولم تؤد إلى كوب ماء •• وانما أسفرت عن وعد بتحقيق هذه
الامنية فى أقرب فرصة !

والذى نتوقعه عادة من هذه اللخبطة فى تناول هذه الاطعمة
المحفوظة الباردة قد حدث •• فهذا الذى أشعر به هو من المؤكد
نوع من المغص الشديد •• والبحث عن المسكنات أصعب من البحث
عن الماء •• والبحث عن طبيب أصعب من البحث عن رجل بلجيكي
فى الكونغو !

وحول المطعم ظهر عدد كبير من رجال الامم المتحدة •• وكلهم
من الجزائريين الذين وضعوا علامات الامم المتحدة •• واقتربت
وسلمت •• وطلبت الماء •• وجاء الماء •• وطلبت الدواء ووجدت الطبيب
والدواء •• وكان الطبيب دنمركيا •• وعرفته بنفسى وبزملائى •
وضحك الطبيب وقال : احترسوا من الامراض الحبيثة !
ولم يضحك عندما قالها •• وانما كان جادا •• ولذلك استوضحته •
وكان رده : انه توجد أمراض جلدية مستحيلة العلاج !

وعرفت فيما بعد أن عبارته هذه أخبت من الامراض الحبيثة !

فقد كان يريد منا ألا نصافح أبناء الكونغو أينما وجدناهم ..
المواطنين العاديين والموظفين .. فمن عادة أهل الكونغو أن يمدوا
أيديهم بالسلام . فقد كان من المحرم عليهم أن يصافحوا البلجيكي
الابيض .. ثم ان هذا البلجيكي قد عاش عشرات السنين وهو
يقطع أيدي أبناء الكونغو لأتفه الاسباب .. فاذا نحن ترفعنا عن
مصافحتهم ، ونحن افريقيون مثلهم ، كنا أسوأ من البلجيكيين
المستعمرين !

ولذلك لم أكد أرى واحدا من أبناء الكونغو حتى تقدمت اليه ..
دون أن أرى االرمح الطويل الذى ألصقه بجسمه ودون أن ألاحظ
انه عريان تماما ، ومددت يدي وقلت له ما معناه : ازيك يا أخ ..
ولا أعرف ان كانت العبارة التى قد صدرت منه معناها : العبيط
أهوه .. أو كان معناها : لقد مضى وقت طويل لم يصافحنى رجل
أبيض ! ..

وان كنت أشك فى أن لوني كان أبيض فى ذلك اليوم .. فالسهر
الطويل .. والارهاق الشديد .. والجوع والاضطراب النفسى والمغص
قد جعلنى أصفر اللون .. ولا بد أن أعصابى كانت مشدودة لدرجة
أنها سحبت عيني من وجهى فأدخلتهما بضعة مليمترات الى الورا
ولا بد أن شعري قد ازداد كرمشة .. وأصبح أقرب الى شعر
الزنوج ..

على كل حال هذه صورتى كما أراها أنا . أما صورتى كما يراها
هذا الأخ الزنجى فلا أحد يعرف مداها .. ولكن مهما كانت صورتى
فى عيني ، فأنها لم تمنعه من أن يمد يده .. ويضغط على أصابعى
بقوة . كأنه يؤكد لنفسه أن الذى يمسكه لحم آدمى أبيض حقيقى ..
وأنه ليس حالما . وان كنت أنا على يقين من أنه حالم فعيناه لهما
بريق غير محدد ، وحدقتا العينين جامدتان . انه يشبهنى عندما
ذهبت للقاء ملكة الفجر فى شمال ايطاليا وكنت من المعجبين بها .
وأدخلتنى حاشيتها فى غرفة من داخل غرفة .. لأجدها أمامى عارية
تماما .. وفى دورة المياه !

ويبدو أن مصافحتى لهذا الزنجى قد شجعت زوجته أو ابنته
على أن تمد يدها .. ومن وراء الاشجار ظهر كثيرون .. وامتدت
أيديهم بالسلام والتحية ..

وعندما عدت الى السيارة قال لى الطبيب الدنمركى : انك شخصية

محبوبة هنا .. وعثرت في أعماقي على ابتسامة قديمة فأطلقتها .
ثم عاد يقول لي : وأنت محظوظ أيضا .

وعرفت اننى محظوظ حقيقة .. فلو نزلت طائرتنا في منطقة
أخرى الى الشمال قليلا .. لكنت بطلا للأساة حقيقية . فمن عادة
القبائل هناك أنهم اذا اطمأنوا الى شخص أحبوه . واذا أحبوه
بصقوا على وجهه .. فالحمد لله !

ولا أذكر من الذى سألنى ما هى أحسن أغاني أم كلثوم لديك
فقلت : النوم ..

فقد كنت أحلم بالنوم .. اذ أحسست ان جسمى أعلن
العصيان .. لا شيء يطاوعنى .. أحاول فتح عيني فلا أقوى ..
أحاول مد ساقى فلا أستطيع .. أحاول أن أقعد فأتوجع ..
أحاول أن أقف فأدوخ .. أحاول أن أفتح فمى فيخرج الكلام
طليقا غير معقول - ومعنى كلمة « معقول » هو بالضبط المعنى
العربى القديم الذى قصده رجال البادية : عقل البعير أى ربطه
بحبل .. والكلام غير المعقول أى غير المربوط بحبل من المنطق
والفهم !.

ودخلت بنا السيارة الجيب فى أحد القصور .. القصر له
حديقة .. والقصر من دور واحد .. وعرفنا بعد لحظات أن المكان
مهجور .. والتراب الكثيف على المقاعد والمناضد والنوافذ يؤكد
ذلك .. وأوراق الاشجار التى غطت الطرقات لم تمسسها يد
ولا قدم منذ سنوات طويلة .. ولا أعرف ان كانت هذه الطيور
القائمة التى تتكاثر فوق رؤوسنا طيورا حقيقية أو هى أوهامى ..
أو هى الطيور التى رآها فرعون مصر وهو يروى أحلامه للنبي
يوسف عليه السلام .. هل هى غربان أو صقور .. أو عصافير
أو فراشات .. أو هى نقط حائرة فوق حروف الكلمات التى
لا تقوى على الخروج من فمى .. أو التى خرجت بالفعل من أفواه
الزملاء ولم أجد لها معنى ولا طعما ! ..

ليس هذا قصرا مهجورا . انه أحد الاديرة . وقد تركه
الرهبان .. ووجدت فجأة اننى أستطيع أن أفتح عيني وأن اتحكم
فى قدرتى على الفهم والتركيز عندما سمعت من أحد جنود الامم
المتحدة أن فى الدير مكتبة جيدة .. وانه فى امكانى أن أراها لو
أردت .. والحقيقة اننى أريد ولكننى لا أستطيع .. واذا لم
أستطع اليوم ، فسوف أستطيع ذلك غدا . وعلى مهل .. وتخيلت

نفسى بسرعة اننى احمل معى الى القاهرة عشرات من هذه الكتب .. ولم أستطع أن أتخيل اننى أحمل المئات .. فقد كان خيالى عاجزا عن المئات فاكتفى بالعشرات ..

وكان لابد أن ننتظر بعض الوقت حتى يعثروا لنا على غرفة نظيفة .. أو على غرفة يمكن تنظيفها بسهولة .. وحتى يجدوا الشخص الذى يتطوع لتنظيفها .. لأن أحدا لا يمكن أن ينظفها بالامر .. فلا أحد هنا يأمر ولا أحد هنا يطيع .. لا حكومة .. لا دولة .. لا قانون .. فالحكومة منقسمة قسمين .. والقسمان منقسمان قسمين .. ولا أحد يقوى على تنفيذ الاوامر المتضاربة التى يصدرها الرئيس كازافوبو .. والرئيس لومومبا .. والرئيس تشومبي .. (وأرجو أن تعينى من ذكر أسماء شيوخ القبائل التى يصل عددها الى ألف قبيلة !) ..

واخيرا قيل لنا أن هناك غرفة ..

وعلينا أن نصبر ساعة أخرى ..

وعلينا أن نشغل انفسنا بأى شئ ..

وفجأة قال واحد منا : لو انفتحت لك طاقة القدر فما الذى تطلبه .

فأجاب احدنا : كوب ماء !

وقال آخر : دشاباردا ! ..

وقال ثالث : سندوتش فول ..

وقلت أنا : اطلب اليها أن تظل مفتوحة نصف ساعة .. لأن الذى احتاجه كثير جدا !

وكان طاقة القدر كانت مفتوحة فعلا فوجدنا الغرفة .. وفى الغرفة سرير .. وفيها مصباح ..

وكان طاقة القدر انقفلت : فقد كان من الضروري أن ننام جميعا فى هذه الغرفة .. نحن الأربعة ننام على السرير .. أو اثنان ينامان على السرير .. واثنان ينامان على الأرض ..

وفى هذه اللحظة اعترضت على أن تكون أغنية النوم هى أحسن الاغاني .. وانما أغنية : يا ليل نجومك شهود على لوعتى يا ليل ..

وكان التعب أقوى من خيالى ومن أحلامى ومن بقايا الكبرياء ..
وارتميت على الأرض .. ولم يكن يفصل بينى وبين الأرض غير
الصحف الصباحية التى جئت بها من القاهرة .. وتمددت ..
وتشجع زميل آخر فنام الى جوارى .. أما الزميلان الآخران
فقد ناما على السرير .. ولم يقو أحد منا على أن يطفىء النور ..
أما من التعب .. وأما من الخوف .. وأما من الحرص على اصطياذ
الحشرات والهوام التى تتساقط من السقف علينا .. أو التى
تكون فى طريقها من الأرض الى السقف فتفضل أن تخرق
أجسامنا .. أو تفضل أن تبث فى ملابسنا على أن تبث فى
العراء .. أو لعلها قد اشتاقت الى اللحم الأبيض ..

واعتقد اننى نمت بعض الوقت .. كأننى قطعة من الحديد
المنتهب أسقطت فى ماء بارد .. فبعد لحظات من النوم المفاجئ
العميق صحت .. لأجد نوعا جديدا من النار .. فقد تكاثرت
الحشرات على عنقى وساقى .. وعرفت أهمية الصباح المضى ..
وفتحت عيني - أستطيع أن أقول اننى أنا الذى فتحت عيني ..
وهذا اكتشاف عظيم لأنه يدل على اننى قادر على التحكم فى
أعضائى - ووجدت محاولة قتل هذه الحشرات عبثا .. فلا يمكن
حصر هذه الحشرات .. انها جيوش .. ولا أعرف بالضبط ما
اسمها .. انها ليست كالنمل ولا كالقمل ولا كالبق .. ولا
كالصراصير .. انها مستديرة وزرقاء وحمراء ولامعة .. وتمشى
فى جميع الاتجاهات .. وتوهمت - من شدة الخوف - أن أحداها
هى ذبابة تسمى تسمى .. وأظن اننى قد رأيت صورة لهذه الذبابة
فى بعض الكتب .. ومعنى ذلك أن « النوم » ليست أغنيتى
المفضلة .. ولكنه نهايتى المحتومة ..

ووجدت زملائى جميعا نائمين .. ومنعنى الحياء أن أوقظ
أحدا منهم .. ومنعنى اليأس من أن نشترك جميعا فى مكافحة
جيوش الحشرات الاستوائية .. ولو أيقظتهم فأين نذهب ..
أن الليل طويل .. والصمت رهيب .. والأصوات التى تبنى من
بعيد لا أول لها ولا آخر .. وربما كان الصوت الوحيد الذى
استطعت أن أميزه هو صوت التماسيح .. انها تبكى كالاطفال ..
ونحن على مسافة أمتار من نهر الكونغو الهائل .. الواسع العميق
الشبائر .. وهو ملء بالتماسيح - أما الصرخات والهمهمات
والهمسات .. والصفير والشخير .. والمواء والعواء .. فلا
أعرف لها مصدرا ..

اذن لابد أن أسكت ..

ولكن لم أستطع .. فأنا ما أزال مرهقا .. والراحة التي حصلت عليها تكفى لأن أفتح عيني . وتكفى لأن أشعر بهذه الحشرات المروعة ..

وباديت زميلا نائما على السرير وقلت له : اصح .. اصح ..
قال : ماذا حدث ؟

قلت : لم يحدث شيء ..

قال : يا أخى اسكت .. أنا تعبان

قلت : أنا تعبان أكثر منك .. ولكن أريد أن أسألك ..
قال : تسألنى الآن ؟

قلت : ضرورى .. المسألة فى غاية الخطورة ..

قال : هل أنت جاد .. ؟

قلت : جدا ..

واعتدل فى جلسته ليسمع منى هذه القصة التى لا أساس لها من الصحة .. قلت : أن الطعام الذى تناولناه من ساعتين كان عبارة عن لحم قرد .. وأنا أعرف هذا اللحم . فلقد أكلت لحم القرد أكثر من مرة .. وأعرف النتيجة .. أعرفها .. بل أشعر بها .. لقد سبق لى أن شعرت بذلك .. ولولا أن طبيبا اتقذنى لكنت الآن فى حديقة الحيوان بهونج كونج ..

ولاحظت أنه فتح عينيه .. وأخذته الدهشة .. وسحبته الدهشة من قلب السرير حتى طسرفه .. وسحبت قدميه الى الارض .. وسألنى : لا أفهم ماذا حدث بالضبط ؟

اذن هو يريد أن يسمعنى من جديد .. اذن هو قد صحا تماما .. وهو خائف جدا . قلت له : لقد أكلت لحم القرد فى هونج وكونج .. ومن خصائص هذا اللحم أن الذى يأكله تظهر عليه أعراض القرد .. فيهرش وتتغير نبرات صوته ..

وراح ينظر الى يدى وهما تهرشان جنبى ، تماما كما يفعل القرد ..

وبدا الخوف على وجهه عندما وجدنى جلست مقرفصا ..
أعلو وأهبط ..

وسألنى : والحل ؟

قلت : لا أعرف ..

قال : الا يوجد دكتور هنا .. طبعا هنا يعرفون هذه الكارثة
التي تصيب الأجانب .. ولا بد ان لديهم مناعة ضد لحم القروود ..
ولم ازد عن قولى وأنا أهرش بشدة على عبارة : لا أعرف ..
لا أعرف !

اما الاحمرار الذي كان فى عينى ، واما البريق الذى صاحب
هذا الاحمرار فهو بسبب براعتى فى التمثيل .. واحساسى
باقترب النهاية ..

وجاءت النهاية : لقد قفز من السرير .. خائفا وانطلق الى
خارج الغرفة ..

وقفزت فوق السرير بكل قوتى ..

وسقط السرير ..

ولم تتم فرحتى !





أحس خدمة يادلى !

الآن

فقط عرفت ما معنى كلمة : المستحيل ..
والجواب المستحيل هو كل شيء .. وأى شيء ..
فلا أمل عندى فى كوب ماء .. أو لقمة عيش .. أو
صابونة اغسل بها وجهى .. مع أن الماء هنا تحت كل مليمتر من
الأرض أو من قشر الشجر . والفاكهة هنا فى الغابة فى عدد أوراق
الشجر .. ولكنها ممنوعة .. ويقال مسمومة .. ولكن أهل
الكونغو عندهم مناعة ضد السموم وضد الحشرات والزواحف
وضد كل عوامل المرض والفتنة .. أما لانهم مرضى بالفعل ..
أو موتى حقيقة .. وأما لأن هذه الحشرات قد ملت دماءهم
وتتطلع الى دماء جديدة .. مع أن تركيب الدم واحد عند كل
الناس .. وربما كان الخلاف بين الدم والدم هو فى الغطاء
الخارجى .. أى فى البشرة فقط ..

ووجدت مواطنى فى الطريق المرصوف - وكل الطرق هنا
مرصوفة وناعمة .. ألوف الكيلومترات . وقد حرص البلجيكيون
على الطرق الكثيرة والمطارات المتعددة .. فالبلاد واسعة -
وسألته : ألا توجد هنا دار للسينما ..

وقال الرجل : كانت عندنا أكثر من دار ولكنها الآن مقفلة .

قلت : السينما فقط ؟ .

قال : لم أفهم ..

قلت : أقصد صالة العرض هى المقفلة أما المطعم فلا بد انه
مفتوح ..

قال : كل شيء مغلق ..

قلت (ضاحكا ومحاوفا أن اكون ظريفا) : اذن بلادكم الواسعة
تضيق بالأصدقاء ..

قال : لماذا ؟

قلت : لأننى لا أجد كوب ماء .. ولا أقول فنجان قهوة ..

قال : بل هنا مطعم قريب ..

قلت : مطعم ؟ قريب ؟

لم أسمع كلمة مطعم بوضوح رغم أنه قالها .. وأنا رددتها .. وكدت أسحب ذراعه .. وأسحب يده .. وأصبعاً من يده وأشير الى مكان المطعم .. وأشار هو برأسه فى اتجاه المطعم .. ولم أجد وقتاً لأشكره .. وذهبت وورائى الزملاء ..

انه مطعم جيد .. نظيف .. وعلى شاطئ نهر الكونغو .. ولا أعرف اسمه .. والاسم — كما يقول شيكسبير — لا يهم ..

والمطعم له كل ملامح المطاعم الأوروبية الجيدة .. وبه مناضد وثرابيزات .. وبه أهم من المناضد أناس .. وأهم من هؤلاء الناس : نساء .. نساء جلسن وحدهن .. وأمامهن زجاجات البيرة الصغيرة والكبيرة .. ومن بين الزجاجات يتعالى دخان السجائر .. أما أصواتهن فأعلى من هذا الدخان ..

دعنى أحدثك عن هذا المظهر المفاجئ للحياة ..

النساء قد ارتدين ملابس بيضاء .. الجيب بيضاء والبلوزة ملونة .. وكل واحدة لا تقل سنّها عن ثلاثين عاماً ولا يقل وزنها عن ٨٠ كيلو جراماً .. ولا يزيد طولها على ١٦٠ سنتيمتر .. أما خط الصدر فمثل خط الارتفاع أكثر من ١٢٠ سنتيمتراً .. وأما خط الخصر فنصف ذلك ..

وهن يتكلمن الفرنسية بصوت مرتفع .. وإذا صح فهمى لحركات السيدات فإن هذه الارتعاشة فى العين هى غمزة فى اتجاهنا .. وعلى سبيل اللعب والشقاوة حاولت أن أعرف من هو المقصود بهذه الغمزة فأخفيت وجهى وتشاغلّت بالكلام .. واستمرت عملية الغمز بالعين اليمنى مرة واليسرى مرة أخرى .. اذن فلست أنا المقصود .. وإنما المقصود هو كل من يجلس معى .. أو نحن جميعاً .. فهى غمزة عامة !

وبعضنا قال : ما رأيكم ؟

وبعضنا الآخر قال : هل تظن أن الفتيات سوف يدعونا الى الفداء ..

قلت : أما الغداء فلا أريده .. انما أريد فنجان قهوة ..
ومتنازل عن الغداء والعشاء ..

وغيرت مقعدى .. وأدرت ظهري للفتيات .. ولكن أذنى كانت
تلتقط كل ما يصدر عنهن من كلمات .. وكان الحوار بين الثلاث
فتيات تقريبا هكذا :

— أظنهم جماعة من اليونانيين جاءوا يفتحون دكانا هنا ..
— معك حق .. فاليونانيون موجودون في كل مكان .. ولو
غرقت الدنيا لظهر رجل يونانى يبيع أطواق النجاة ..

— ولكن يظهر أنهم جميعا ليسوا تجارا .. فأغلب الظن أن
أحدهم طبيب .. فأصابه رقيقة .. وحركاته بحساب ..

— أيهم ؟ ..

— ذلك الذى أعطانا ظهره .. وهو أكثرهم حركة وأكثرهم قلقا

— طبيب ؟ انه أقرب الى المرضى منه الى الأطباء ..

— لعله عاشق ..

— وجاء يتوب فى الكونغو ..

— طبعا على يديك ..

وهنا تقدم جرسون وعلى يديه صينية بها أربعة فناجين قهوة.

وقبل أن أسأله كيف عرف اننى أكاد أموت شوقا وعطشا
ومزاجا الى فنجان واحد أشار بيده الى حيث جلست الفتيات
الثلاث ..

وكان من الدوق أن أستدير لأشكر .. وبعد أن أشكر أتساءل
كيف عرفن ذلك ..

واستدرت لأشكر .. وانفردت صاحبة الفمريات واللمزات
بالشكر .. وبحركة من يدها رفضت الشكر . تماما كأن الشكر
كرة تنس ويدها مضرب .. وأصابنى الشكر فى دماغى .. فقررت
أن أذهب اليها أشكرها .. وأعرف منها كيف عرفت .. وهل
يمكن أن يذهب بها الكرم لدرجة أن تأمر لنا بفنجان آخر ..

ومددت يدي شاكرا لها .. وشاكرا للآخرى .. وللثالثة ..
وسحبت مقعدا وجلست وقدمت نفسى .. وقدمت كل واحدة
نفسها : جورجيت .. سوزى .. نادية ..

قلت : نادية .. اسم عربى .. ويمكن عالمى ! ..
قالت : أنا عربية .. وعندى كمية كبيرة من البن اليمنى ..
قلت : ربنا يديم العروبة .. والاخوة .. والقهوة .. ويعوضك
قالت : يعوضنى عن ماذا ؟
قلت : عن كل ما عندك من بن !
قالت : كل البن ؟ بعضه فقط !
قلت : وحضرتك ماذا تصنعين هنا .. ؟
قالت : عاطلة .. وزميلتى عاطلة جدا .. والزميلة الثالثة
ضائعة ..

قلت : الحال من بعضه .. ونحن أيضا نريد أن نعمل ولكننا
لا نستطيع .. لا لأنه لا يوجد عمل ولكن لأنه لا يوجد وقود ..
لا ماء ولا طعام ولا مأوى ..

ولم تتحمس الفتيات لهذا الموقف الذى يبدو أنه موقف
تسول .. مع أن هذه هى الحقيقة ..

وعندما مددت يدى أعتذر وأكرر الشكر .. بدا الضيق على
وجوه الثلاث فتيات .. أما السبب فهو اننى تظاهرت بأننى
لا أفهم بوضوح ما يقلنه .. ولم أفهم معنى أن الثلاث يسكن فى
فيلا مهجورة فى آخر المدينة .. وأنهن يفضلن ضوء الشموع على
المصباح الكهربائى .. وأنهن يفضلن الطعام الساخن جدا مع
المشروبات المثلجة جدا .. وأنهن يتفعلن برقم سبعة : هن ثلاث
ونحن أربعة .. وأن اليوم هو يوم ٧ من الشهر السابع .. مجرد
صدفة ذكية ! ..

ولم أفهم معنى هذه الاقتراحات الوجيهة ..

وأعتقد أن كلمة : « دوشه » وهى كلمة بدائية كونفولية
معناها : غبى ..

لقد تكررت هذه الكلمة عشر مرات على الاقل فى كل مرة
أعترف فيها : اننى لا أفهم ..

وانا أقطع بأن هذا معناها .. لاننى لاحظت أن هذه الكلمة
تخرج من الفم مع مط الشفتين الفليظتين وحركة بالقدم على
الأرض .. تماما كما يبصق انسان على الأرض ثم يخفى معالم
هذه الجريمة الصحية بحدائه !

وأفقت من هذه المناقشة على سؤال رن فى أذنى : معقول
نصل الى الكونغو ولا نرى لومومبا ؟
صحيح هل هذا معقول .

وكان الجواب ان هذا معقول جدا . فنحن لا نعرف أين هو
الآن .. ولا أحد يعرف .. فهو قد أخفى مكانه عن رجال القبائل
وعن خصومه .. وحتى لو عرف الناس مكانه فانهم لا يستطيعون
الوصول اليه .. فلا توجد مواصلات .. التليفون وحده لا يكفى
.. لان التليفون يصل بين بعض المدن فقط ..

وخرجنا من المطعم وعلى وجوهنا ابتسامات مفتصة للفتيات
الثلاث ..

وعندما خرجنا من المطعم قابلنا الطبيب الدنمركى وسألته :
هل هناك أمل فى رؤية لومومبا ؟
فأجاب : لا أمل .

قلت : المواصلات .. ؟
قال : أنا أعرف مكانه .. ولكنه هو
قلت : ماله ؟

قال : انه فى حالة نفسية سيئة جدا .. لا يكف عن الصراخ
والشراب فى وقت واحد .. وكثيرا ما خرج الصراخ شرابا ، وكثيرا
ما تحول الشراب الى صراخ .. الى مفص واغماء ..
قلت : اذن ما الذى نفعله ؟

قال (ضاحكا) : حاولوا اقناعه بأن يكف ..
قلت : أسهل أن أكف أنا عن طلب أى شىء منك ..
قال : هل غضبت ؟

قلت : لا جدوى من الغضب فليس أمامنا أحد سواك ..
نسأله فلا يجيب ..

ولكن كان من الصعب أن أقنع باستحالة لقاء لومومبا ..
واتفقنا على أن نبحث عن طريقة لرؤيته .. ولكن اتفقنا لا يهم
ولا قيمة له .. ما دمنا عاجزين عن تنفيذ هذا الاتفاق .. أو عن
الانتقال من مجرد الكلام الى العمل ..

وعندما عدنا الى المطار الصغير حيث توجد بعض قوات الامم المتحدة سألت أحد الضباط السويديين : ألا توجد طريقة لرؤية لومومبا ..

وكان جوابه : لقد اختفى اليوم ..

وعرفت أنه اختفى في مكان .. في أى مكان .. فليس من الضروري أن أعرف أين .. لأنه من السهل على هذا الضابط السويدي أن يشير بيده المربوطة بالشاش الأبيض الى الغابة .. أو الى نهر الكونغو .. لأفهم أن لومومبا قد اختفى في هذه الأماكن وسألته ان كانت هناك أية صحف .. أية خرائط .. أى جهاز راديو لنسمع أى شيء .. لنعرف أى شيء ..

رفع كتفيه الى أعلى كأنه يلقي بالمسئولية من فوقهما .. وحمدت لله أن المسئولية قد سقطت على الأرض .. ككل شيء هنا : على الأرض وفي الأرض .. فلا أحد مسئولاً عن أى شيء .. ولا حتى قوات الطوارئ الدولية .. انها قد ارتدت الملابس الأنيقة .. وكدست وراءها العلب الملونة لأنواع الطعام المختلفة .. وملأت جيوبها بالسجائر والسيجار .. ووجوهها بالابتسامة وبالضحك ... اما مرتباتهم فتتحول من تلقاء نفسها الى البنوك ..

أما الناس الذين جاعوا لحمايتهم فلا يعرفون عنهم شيئاً : لا حكومة ولا شعباً .. ولا لومومبا !

وتساءلت فجأة : ما الذى يمنع أن تكون هذه البلاد أى بلاد أخرى .. فلا يوجد أى دليل على أننا في الكونغو .. فان أحداً من الناس الذين قابلتهم قد ذكر لى اسم هذه البلاد .. بل اننى فى مطار القاهرة قد سمعت اسم الكونغو من أحد رجال المطار .. ولكنه حتى عندما ذكر اسم الكونغو لم يكن يقصد الطائرة التى سوف أسافر بها .. وانما ذكر كلمة الكونغو مرادفاً لكلمة هيصه .. والذكر انه قال بالحرف الواحد : أصلها هيصه .. كونغو ! ..

ولا توجد هنا لافتة واحدة ..

ودفعنى هذا الشك الى أن أقف هذا الموقف المضحك .. فالتفت الى موظف ارتدى القميص والبنطلون وقد ظهر جادا

مهموما .. أو هكذا حاول أن يبدو أمامي .. ربما لانه وجدني
مهموما .. أو ربما وجدني خاليا عاطلا ، فانتهر هذه الفرصة
ليبدو أكثر أهمية .. وأكثر فائدة لبلاذه .. اقتربت منه وأطلقت
ابتسامة عريضة في وجهه .. كأنها يد ممدودة لتحيته .. وقلت :
قل لي .. أى بلد هذا ؟

فأجاب : انه بلد ..

قلت وأنا أحاول أن أعرف حقيقة : الذى يراه لأول مرة يتصور
أنه الكونغو ..

فضحك فائلا : هل تعرف ما الذى قاله فيكتور هيجو عندما
كان مريضا .. ونظر الى نفسه في المرآة .. قال : الذى لا يعرفنى
يخيل إليه اننى رجل حاقد على فيكتور هيجو !

ولما لاحظت أن الموقف لا يحتمل مثل هذا الضحك سألته : هل
هذه هى الكونغو حقيقة ؟

فأجاب : لا أفهم ماذا تقصد .. كيف كنت تتصورها .. تماسيح
وأكلة لحوم البشر .. اننا يا سيدى لم نأخذ فرصتنا فقط ..
وأنت تعرف مثل هذا المعنى .. أما انكم فى الشمال قد نسيتم
الاستعمار وماذا يعمل فى الشعوب ..

لم أنس طبعاً . ولا يمكن أن أنسى ..

وأهم من هذا كله أن هذه هى الكونغو ..

ولا أعرف ما الذى استفدته بعد أن تأكدت من أن هذه هى الكونغو
.. لم أستفد شيئاً . ولا أعرف كيف أضيف الى معلوماتى شيئاً
جديداً . ولو عدت الى القاهرة وسألنى الناس أين كنت فلا يوجد
دليل مادي على أننى برحت أرض القاهرة .. فلا أنا رأيت الخرطوم
ولا أنا رأيت شيئاً فى الكونغو ..

وكان أحد الزملاء سمعنى وأنا مشغول بالحديث مع نفسى .. وكأنه
رأنى أضرب فكرة بفكرة .. تماماً كما أضرب كفاً بكف .. وكأننى
كنت مسموما فقال : عندك مانع تقوم بمغامرة .

قلت : أليست هذه مغامرة أيضاً . .

قال : مغامرة أخرى محددة .

قلت : مثلاً .. تقترح ماذا ؟

قال : نركب هذه السيارة ونخرج بها من المطار . . . وهي سيارة
للأمم المتحدة . . . ومفروض أننا جئنا مع قوات الأمم المتحدة ونعمل
في خدمتها . . . ما رأيك بسرعة . . . لا تفكر !

ولم يكن عندي مانع . . . المهم أن أخرج من هذا الفراغ الذي في
نفسي والذي حولي . . . وأن المس شيئاً أو أحداً . . . وأن أسأل وأن
أعرف . . . وأن أقول وأن يقال لي شيء . . .
واتجهنا إلى السيارة . . .

وفي هذه اللحظة وجدنا أربعة من الجنود اتجهوا إليها أيضاً . . .
ولأن أحداً منهم لم يتصور أننا نفكر في مغامرة : ركبوها دون أن
يسألونا شيئاً . . . لقد كانوا أسبق منا إلى تحقيق رغباتهم . . .
والذي صنعوه هو رغبة وليس مغامرة . . .

واقترحت على زميل لي : ألا توجد عندك رغبة في ارتكاب جريمة
لن يعاقبك عليها القانون . . . لأن القانون اختفى هو الآخر في الغابة
أو في النهر . . .

قال : أريد أن أقتل فعلاً

قلت : الجوع . . . والعطش . . . والارق

قال : وهذا الرجل !

وأشار إلى أحد الموظفين من أبناء الكونغو . . . فقد ذهب إليه يسأله
عن مكان يغسل فيه يديه . . .

ولكن الموظف لم يرد عليه . . . فظن أنه لم يفهم لغته الفرنسية
فتحدث إليه بالإنجليزية . . . ولكن الرجل لم يرد . . .

وقررت أن أذهب إليه . . . لأبذل أن هناك شيئاً . . . أن هناك قصة
. . . موضوعاً . . . كلاماً . . . شيئاً مثيراً لهنزني من داخلي . . . فأنا نائم
في جلدي . . . أو ميت في جلدي منذ أكثر من ٢٤ ساعة . . .

وعندما اتجهت إلى الرجل الكونغولي ، لاحظت أن كلمة «تواليت»
معلقة على باب مكتبه . . . ومعنى ذلك أن هذا المكتب كان قبل ذلك
« دورة مياه » ثم تحول بسبب زحف قوات الأمم المتحدة إلى مكتب
ملء بالنشاط والحياة . . . أي إلى « دورة حياة » . . . ولابد أن هذا
المواطن الكونغولي قد توهم أن زميلي إنما أراد أن يسخر منه . . .

وجاء يطلب منه أن يخلى له المكتب بعض الوقت فيتمكن من أن يفعل شيئاً ما في ركن من أركان الغرفة !

وعذرت صديقي فقد كان مرهقا ، وعذرت الرجل الكونغولي فلم يكن يدري أن المكتب رغم مابه من أوراق ، ما يزال يحتفظ برائحته القديمة الاصيله !



وعلى الرغم من أن البقعة التي نتحرك فيها ضيقة . . فانها تدل على كل شيء في هذه البلاد . .

فالشوارع مرصوفة ناعمة وكثيرة . . والمطارات متناثرة في كل مكان . . والمطار عبارة عن قطعة أرض مغطاة بالاعشاب وموجودة في قلب غابة . . أو على اطرافها . . والسكك الحديدية أيضا تربط البلاد من كل جوانبها . . والسيارات الى تراها من حين الى حين لا بأس بها . . والبلجيكيون قد أعدوا لانفسهم كل وسائل الراحة والمواصلات اهم المشاكل في الكونغو الواسعة . . وهي مريحة جدا . .

كما أنهم تركوا شيئا من التزمت في البلاد أيضا . . فقد لاحظت ونحن نركب سيارة الامم المتحدة أن بعض المشاة قد احتجوا علينا . . وظننا أنهم يحيوننا في حماس غاضب . . أو في غضب من نوع خاص . . ولكن لاحظنا أن الاحتجاج تكرر مرة وراء أخرى . . وكان السبب واضحا : اننا نمشي على الجانب الايسر من الطريق واننا لانستخدم الكلاكس . . أو اننا نسرف في استخدامه !

وفجأة - كأنه هبط من السماء - رأيت أحد رجال الدين . . وهو ككل رجال الدين عنده الكثير من الهدوء والاطمئنان كأنه يحمل في جيبه بوليصة تأمين على هذه الحياة وعلى مابعد الحياة . . ولانه رجل من رجال الدين فهو يمشي في كل طريق وفي كل وقت آمنا مطمئنا . . وقبل أن اتجه اليه ، كان هو قد اتجه الى . . آته طويل القامة . . أبيض اللون . . لامع الجبهة والمنظار ، والأسنان والأصابع . . بها خواتم ذهبية وفضية . . ومددت يدي وهو أيضا . . وكأنه توقع أن أقبلها . . ولم أفعل فليس عندي سبب يدعوني الى ذلك . . وقال بحكم العادة : ماذا وراءك يا ولدي !

وهزتنى هذه العبارة العادية بصورة غير عادية . فلم أسمع من أحد منذ عشرين عاما يقول لي : يا ولدي . . فقد مات أبي ولم أعد أجد معنى لهذه الكلمة بعده أو قبله . . ومن الغريب أنه تصادف أن يكون ذلك اليوم هو يوم مولد والدي . . صدفة . .

وفي هذه اللحظة استعرت جو الكونفو .. فالتهمت مشاعري
وتساقطت منى الدموع ..

واقترب منى القس .. ولكنه لم يعرف لماذا حدث ما حدث
.. فقلت : عندي همومي الخاصة ..

فأجاب بحكم العادة : أعانك الله عليها وعلى نفسك يا ولدى ..

واستجمعت رجولتي وحاولت أن أكون أكبر من الموقف ..
وسألت القس أن كانت هناك أية وسيلة أخرى للحركة ولقاء
الناس .. فنحن أقرب مانكون إلى أسرى الحرب .. أو كجماعة
يلعبون لعبة « المساقة » .. فقد سافرنا من القاهرة ولمسنا
جدران الكونفو وسوف نعود غدا أو بعد غد ..

وهز رأسه يؤكد لنا أنها بالفعل لعبة المساقة .. ولعبة
الاستغماية .. واثني لو أقيمت في الكونفو سنة أخرى فلن تتغير
اللعبة أيضا ..

وحاولت أن أجعل للكلام معنى فسألته عن المكتبة التي يقال
أنها موجودة في أحد الاديرة .

فأجاب بأنها نقلت من الدير القريب إلى دير آخر يبعد سبعين
كيلو مترا .. وهذه المسافة تعتبر فرقة كعب في بلاد واسعة
شاسعة مثل الكونفو ..

وسألني عن أي نوع من الكتب فقلت : أي نوع ..

وضحك وهو يقول : أعرف هذا النوع من القراء ..
وسكت .. وهز رأسه في أسف تقليدي : كنت مثلك !
أي أنه كان مثلي يقرأ أي شيء ثم تاب الله عليه ليقرأ شيئا
محددا .. أو ليتوقف عن القراءة !

وقاومت رغبتى في أن أقول له أني في حاجة إلى فنجان قهوة
.. وان زملائي المساكين في حاجة إلى رغيف عيش .. واننا
جميعا - مثله - على باب الله . !

وكأنه على موعد مع أناس آخرين قال : هل تريد منى
خدمة يا ولدى !

وفقدت شهيتي إلى سماع كلمة يا ولدى .. وشكرته .. وفي
اللحظة التي تلقى منى فيها الشكر ، رفضه بهزة من يده ورأسه
.. واستدار بسرعة .. واختفى في سيارته .. واختفت
سيارته الصغيرة في الطريق الطويل . !



أهلا .. أهلى بآ !

الورقة التى فى جيبى والتى تسلمتها عند نزولنا الى مطار مدينة كوكياتفيل فهى تذكرنا بأنه من الضرورى أن نلتقى جميعا فى المطار فى مكتب ضابط جزائرى ..

وفى الموعد المحدد ذهبنا ..

المكتب نظيف .. الارض كملايس الضابط نظيفة ولامعة .. وكأنها هى أيضا « مكوية » .. والابواب مثل الزراير نصفها معدنى والنصف الآخر خشبى ..

ولم يقدم لنا فنجانا من القهوة أو الشاي أو يسألنا ان كانت عندنا أية رغبة فى تناول شيء .. لقد نسى الرجل أنه عربى ، ولم يعد يذكر الا ملايسه والاشارة المعلقة على كتفه وعلى قبعته .. والا العلم الذى يرفرف أزرق فى أبيض على المبنى .. وكانت محاولة خبيثة من جانبى أن اتحدث اليه باللغة العربية .. وكانت محاولة يائسة منه أن يتكلم بالفرنسية .. هو يذكرنى بأنه أمم متحدة ، وأنا أؤكد له أنه عربى .. أو أنه من الواجب أن يكون عنده شيء من كرم العربى .. وانتهت المباراة الى نجاح الامم المتحدة !

وتنفيدا لقرار الامم المتحدة يجب أن نعود الى القاهرة بعد ساعات .. لان الطائرة التى حملتنا هى الطائرة الوحيدة التى يمكنها أن تعود بنا واذا لم ندرك هذه الطائرة فسوف يفوتنا كل شيء ..

وأول ماخطر على البال طبعا أن يتلمس كل منا جواز السفر الذى فى جيبه ويسأل عن ادارة الجوازات وعن تأشيرة الدخول والخروج .

وقد اكتشفت اننى خرجت من القاهرة بلا تأشيرة خروج ..

فلم يسألنا أحد عن جواز السفر .. لافى مطار القاهرة ولا فى مطار الكونغو .. ومعنى ذلك أننا - رسميا - لم نخرج من مصر ولم ندخل الكونغو ..

ولكن ما الذى يمكن أن يحدث لو - بمحض الصدفة - ضبطتنا إحدى الهيئات الطبية فى مطار القاهرة وليس معنا شهادة تطعيم ضد الكوليرا مثلا والحمى الصفراء وغيرها من الأمراض المتوطنة والوبائية ؟

وسألنا رجال الأمم المتحدة .. واقترحوا ان نأخذ سيارة ونذهب بها الى إحدى المدن المجاورة .. ولم نعرف اسم المدينة . وإنما قيل لنا أن السائق يعرف وهذا يكفى .. وهناك سوف نجد طبيبا .. وعنده تعليمات لأجراء اللازم !

أى أننا موضع اهتمام وتعليمات واجراءات وانها ستنفذ جميعا ..

وفى السيارة لم يتكلم السائق الدولى كلمة واحدة .. لا بالعربية ولا بالفرنسية .. هو ابتلع لسانه ونحن أيضا ..

وحتى عندما نظرت الى مؤشر السرعة فوجدت انه تجاوز المائة والعشرين كيلو ابديت اعجابى بالسيارة وبنعومة الشارع المرصوف .. وكانت هذه حقيقة لا مجاملة فيها ، فلم يرد بكلمة واحدة .. وكأنه توقع منى أن أستمع فى الثناء عليه .. فاقتررب منى قليلا لعلى ارفع صوتى على صوت الموتور ، ولكنى لم أفعل .. وتركته يتوقع وانشغلت بالنظر الى الحقول .. والى الغابات .. وتوهمت اشكالا لحيوانات غريبة ..

وعرفت فيما بعد أن هذه الحيوانات التى رايتها كانت بالفعل حيوانات متوحشة ولكن الاوصاف التى أذكرها ليست صحيحة .. فهي مختلفة تماما عما رايتها .. واندهشت قائلا : وهل أنا مسطول ؟

فأجاب الطبيب الكونغولى : نعم ..

سألته : ماذا تقصد ؟

قال : من هذه البقع الصفراء على قميصك .

قلت : وما هذه البقع ؟

قال : انها فاكهة نأكلها باحتراس شديد وليس فى هذا الوقت من العام .. لانها لم تنضج بعد .. ولا بد أن أحدا قد دأبكم بهذه الفاكهة ..

وضحك . ولم أضحك . وشعرب بدوخة مفاجئة . . اما
بسبب الحقنة التى غرسها فى جلدى . . أو بسبب المشرط الذى
أسال دمى . .

وتذكرت ان فتيات الكونغو قد ملأن جيوبنا ببعض هذه الثمار . .
وظننا - بحسن نية وغرور اكيد - أنه الإعجاب . . أو الحب من أول
نظرة . . ولم تكن هذه الثمار فى طبق أو فى ثلاجة . . وانما كانت تتدلى
من شجرة أدخلت فروعها الى داخل المطعم . . ومن الغريب ان
هذه الفاكهة الصفراء لذيدة . . وان كانت لاسعة الطعم . . كأنها
نوع من الجوافة المطعمـة بالمـانجو والمرشوش عليها القليل من
الموستاردة والشطة . . لذيدة . .

وهى تصيب من يأكل الكثير منها بشيء من الهلوسة . .

وبدأنا نراجع تصرفاتنا . . واخذنا نضحك . . ولم يتسع وقتنا
لنسال ان كان هذا الضحك الشديد الذى اسال عيوننا هو من آثار
هذه الفاكهة . . أو أنه شيء طبيعى . .

وحاول بعضنا أن يعثر على هذه الشجرة أو أية شجرة مماثلة لها
. . ولكنه لم يجد . .

ولم يكن من الصعب علينا تغيير تواريخ الشهادة الدولية التى
صرفها لنا الطبيب الكونغولى . . والا حجزونا فى المحجر الصحى فى
مطار القاهرة أسبوعين آخرين . . وقد حدث بالفعل لبعض الزملاء
. . والحقيقة اننى لم أكن فى حاجة الى هذه الشهادة الدولية فعندى
شهادة صالحة للخمس السنوات القادمة . . ولكن لم يتسع وقتى
لاحضارها معى . .

وبسرعة عدنا . . وبسرعة نزلنا من السيارة . . ووجدنا الطائرة
فى انتظارنا . .

ولأول مرة أرى الطائرة بوضوح . . انها جراج واسع . . أرضها
معدنية وجدرانها كذلك . . وقد أصبحت نظيفة وشديدة البرودة . .
واحسست كأننى عريان ملط . . وأن ملابسى لاتحمينى من أى شيء
. . المقاعد المعدنية تلسعنى كالجلوس على البلاط . . جدار الطائرة
كالمقاعد بارد . . ومن قلب الطائرة يرتفع سلم الى كابينة القائد . .
ومن كابينة القائد أرى بعض الوجوه . . انهم أكثر من طينبار . .
وفى الكابينة حركة غير عادية . . لقد تحركت مراوح الطائرة . .
واحدة بعد واحدة . . وزمجرت الطائرة وبدون أية تعليمات تحركت

الطائرة الكبيرة جدا .. ومشيت على الارض الخضراء .. وارتفعت في الهواء .. الى أين ؟ لا أحد يعرف بالضبط .. لم يدر بيننا أى كلام .

ولا تزال الحركة غير عادية في كابينة القائد ..

والآن يمكننى أن أصف هذه الحركة .. انهم يتناولون طعام الافطار .. يفتحون علبا كبيرة .. العلب من الصفيح .. ويبدو انها مثلجة وفي أيديهم سندوتشات كبيرة مملوءة باللحوم الباردة .. ومعهم فطائر من التفاح .. وكل شيء عادى جدا .. فهذه الطائرة بيتهم المتحرك .. ولا علاقة لهم بالركاب سواء كانوا مدنيين أو عسكريين .. انهم جماعة من الأمريكان في مهمة دولية ..

وربما كان الشعور بالجوع والعطش هو الذى جعلنا نشعر بالبرودة أكثر .. وحاولنا أن نغطى هذا الموقف بالكلام .. ولكن من الذى يسمع منا .. أن صوت الطائرة صارخ .. ثم ما هذا الكلام الذى يمكن أن يدور بيننا .. فكنا نضحك بلا سبب .. أو كنا نضحك للسبب الذى عرفناه أخيرا ..

ونهضت وتسللت الى الكابينة : صباح الخير .. ورد الكابتن : صباح الخير .. بيرة ..

قلت : شاى ..

قال : حالا ..

قلت : شكرا .. ولزملائي أيضا ..

قال : حالا ..

وفعلا جاء الشاى الساخن .. وبهذه السهولة ..

اذن من أين جاءت هذه الصعوبة التى نتعذب بها .. الشاى سهل .. والشراب سهل .. والطعام سهل ..

ولكن أحدا منا لم يحاول ولم يطلب .. ان كل شيء موجود وراء هذه الابواب وهذه الستائر .. وفوق هذه السلالم .. ووراء هذه الوجوه .. ولكننا لم نحاول أن ندق بابا وان نصعد سلما وان نقول صباح الخير وان ننتظر الرد ..

وقال : سندوتش ..

قلت : ان كان ممكنا ..

قال : ممكن ..

قلت : ولزملائي أيضا ..

قال : ولصديقائكم .. ان كانت لكم ..

وضحكت . وشجعني الشاي والسندوتش والدفع الموجود في
الكابينة والالفة الانسانية التي تتم بسرعة بين الناس دون ان اعرف
من هو .. ولا هو يعرف من أنا .. أنا في مهمة وهو في مهمة .
ونحن الاثنين في طائرة واحدة فوق الكونغو .. ونتفاهم بلغة دولية
.. لغة الذوق والمجاملة .. لغة مفرداتها الابتسامة والكلام والشاي
والخبز .. وتطرقت في الكلام ورويت له قصة فاكهة الهلوسة ..
وضحكت .. وتمنى لو أنه ذاقها .. واخرج ورقة وقلم ليكتب
اسم الفاكهة .. ثم أعاد القلم والورقة الى مكانهما عندما عرف أنني
لا اعرف .. ولكن الاسف كان واضحا على وجهه .. ولكن لحسن
الحظ لم يصل الى درجة أن يسحب مني الشاي والسندوتش ..
وأشار من نافذة الطائرة الى الارض .. وقال : هذه بحيرة
فكتوريا .. طبعاً !

من هنا ينبع نهر النيل العظيم ..

ليس شكل البحيرة واضحاً . ولكن الماء لونه أزرق تركوازي ..
وتوجد زوارق صغيرة .. أو حيوانات كثيرة بالقرب من الشاطئ
.. هذه الحيوانات هي وحيد القرن .. السيد قشقة .. عددها
كثير .. وان كانت تنقرض هذه الايام .. وكذلك التماسيح ..
فالمفروض أن يضع التماسيح بيضه على الشاطئ وقتاً طويلاً ..
ولكن كثرة الحركة السياحية في جانب من هذه البحيرة يجعل
التمساح يهرب الى الماء ويترك البيض فتجيء بعض الطيور أو
الحيوانات المفترسة وتاكل البيض ..

وسألني كابتن الطائرة ان كانت القعدة مريحة .. وأشار الى
حيث كنا نجلس فقلت : عذاب في الذهاب وعذاب في الاياب ! .

ولم يهتم .. فهو كرجل عسكري .. قد اعتاد على هذه المقاعد
الموجعة لكل خلية في الجسم .. وأشار الى زميل عجوز وقال :
ادوارد ..

وجاء العجوز ادوارد انه يشبه العمدة في أفلام رعاة البقر ..
طويل القوام .. مقطب الوجه .. اذا تكلم اهتز .. وتمايل ..
ولكن يده دائماً قريبة من مسدسه .. ولم تكن على صدره النجمة
المعروفة .. وجاء ادوارد ونظر الينا .. كأنه يرانا لأول مرة ..

وسأله : التكييف متعطل ..

ورد عليه ادوارد ببرود أشد من أرضية وسقف الطائرة : انه
لا يعمل ..

وهنا اعتذر الكابتن واصلىح هو جهاز التكييف ؟

وفي لحظة تحولت الطائرة الى غرفة دافئة مريحة للاعصاب ..
وأصبح الهواء كأنه نعومة الحرير والمخدرات والالحفة .. : ونامت كل
خلية حية في جسمى .. وهتفنا جميعا لادوارد : الله يخرّب بيت
أبوك يا عمدة ..

وسألنى : ماذا تقولون ..

فقلت : النشيد القومى ..

فقد كان فى استطاعة ادوارد هذا أن يشغل التكييف مندساعات
ويرحمنا من البرد الشديد الذى دغدغ عيوننا ودشّش بقية
الاعضاء ..

أما أنا فعندى مقياس للبرد لا يخطئ : اننى أشعر به فى الجانب
الايمن من بطنى ..

واختفى احساسى بالجانب الايمن من بطنى .. واحساسى ببطنى
.. اذن فالجو دافئ والسماء صحو .. والشمس مشرقة ..
وما تزال بحيرة فكتوريا تحتنا .. وما تزال فى المناطق الشمالية من
الكونغو .. والطائرة متجهة الى السودان ..

ولكن الحالة المعنوية أحسن ..

والكلام الذى دار بيننا هو من وحى الدفاء .. ومن وحى
الشأى والسندوتش .. ودفاء العلاقات الانسانية التى تولدت
بسرعة .. حتى ادوارد العجوز ما يزال جالسا عند أعلى السلم
وقد وضع ساقا على ساق واستعاد ذكريات حزينة .. واضح
انها حزينة .. وراح يغرقها فى اكواب البيرة الباردة .. ويرفع
صوته بالغناء .. انه مبسوط ..

وعندما اهتزت الطائرة فجأة .. هز رأسه وأشار بيده ..
أشارة لم نفهمها .. وبدأت الطائرة تهبط .. ومن النافذة بدأت
الأرض الخضراء تقترب .. والغابات الكثيفة فى كل مكان .. وهبطت
الطائرة .. ولكن المطار مختلف .. فله ممرات .. وهناك برج ..
ووقفت الطائرة ، وانفتح الباب الخلفى .. ونزلنا من نفس المكان
الذى نزلت منه عربات الجيش والذخيرة المصرية .. وأشار إلينا

ادوارد أن ننزل .. وقال لنا : الا اذا كان احد منكم يريد أن يبيت هنا ..

ولم يكن عندنا كلام نقوله .. ولكن غلبت علينا الرغبة في أن نعرف أين نحن .. وان نتفرج واذا لم نجد مكانا عدنا الى الطائرة .. أما هو فبحكم العادة أخرج بطانية .. أو مرتبة .. ودخل فيها .. وشد السوسته .. ونام في جانب من الطائرة .. ويبدو انه نام بالفعل .. وفي دقائق .. ونزلنا من الطائرة .. ووجدنا البوفيه .. البوفيه نظيف .. والجو نفسه منعش .. والمكان مرتفع .. والجرسونات يمشون حفاة ولكنهم يلبسون طربوشا فاقع الاحمرار .. والزر الى الامام .. والضحك على وجوههم جاهز .. واية اشارة اليهم تجعلهم يضحكون أكثر .. انهم كأبناء القلبين وأندونيسيا يضحكون على الفاضى وعلى المليون .. وليسوا كأبناء اليابان الذين يضحكون بحسب : فهم يضحكون ليعطوا لانفسهم ولغيرهم فرصة للتفكير فيما بعد ذلك .. أى فيما بعد الضحك ..

فالضحك في اليابان مثل هذه المسافة البيضاء التي جاءت في هذا السطر .. انها مسافة وبعدها يجيء الكلام ..

وهذا البوفيه مشجع .. والضحك مشجع أكثر .. والحالة المعنوية عالية .. ولا أوجاع في البطن ولا في الرأس .. وقلت لواحد منهم : هل نحن في كينيا ؟

والآن اريد أن أصور ما الذى حدث في البوفيه .. أريدك أن تتصور ان قبيلة من قنابل الغاز التي تبعث على الضحك وتسيل الدموع قد انفجرت في كل واحد من الجرسونات السبعة الموجودين في البوفيه .. وان هذه القبيلة متعددة المراحل .. وان مرحلتها الاولى قد انفجرت في العينين .. والثانية في الفم .. والثالثة في البطن .. والرابعة قد انفجرت في البنطلون .. وان هذه القبيلة اسمها : هل نحن في كينيا ؟ ..

لقد تعالت أصوات الجرسونات بالضحك والدموع .. والتساقط على الأرض ..

وبدأ الزملاء يسألوننى عن النكتة التي قلتها .. وكررت ماقلت .. واندھشوا هم أيضا .. وبعد ان زال أثر القنابل المضحكة اقترب واحد منهم وقد عاوده العبوس الذي يعقب الانفعال الشديد وقال : نحن في أوغنده !

ولم أشرح له اختلاط أوغنده وكينيا في رأسى .. فلا أحد قال لنا أين هبطنا .. وحدود أوغنده وكينيا متجاورة .. ولا أعرف ان وصف أوغنده بأنها كينيا يبعث على الضحك .. ولكن ما داموا قد ضحكوا ، فلا بد أن هذا مضحك .. تماما كما تذهب الى سوهاج وتقول لهم : مش دى أسيوط !

ولا بد أن أهل أوغنده وجدوا في جهلى فرصة سعيدة لشعورهم بالتعالى على رجل أبيض جاهل .. ومن المؤكد أننى أسعدتهم ورددت لهم اعتبارهم ، ولو كنت أعرف أشياء أخرى تسعدهم لفعلت ، فان الشاى الذى قدموه قد انعشنى وأسعدنى .. وشربت كوبا وراء كوب .. وفى كل مرة امتدح الشاى الانجليزى .. بل اننى تطوعت ودخلت البوفيه وصنعت الشاى على الطريقة التى تعلمتها في جزيرة سيلان .. ومن خبراء الشاى .. وما زلت حتى اليوم أسير هذه العادة ..

ولما سألوني كيف تعلمت الشاى ..

وجدت الفرصة التى أحولهم فيها الى تلامذة .. واسترد فيها مكانتى كواحد لديه الكثير من المعرفة في هذه الصناعة التى ياكلون منها العيش .. ولكى أؤكد لهم ان الخلط بين كينيا وأوغندا من الجوى ممكن جدا .. وكثيرا ما أسقطت الطائرات في الحرب قنابل على أهداف خاطئة .. قلت : تعلمتها في شركات الشاى في مدينة كولبو بـسيلان .. وفى مقاطعة دار جيلنج في الهند ..

ورويت لهم كيف ان احدى شركات الشاى في سيلان قد طالبت منى أن أعطيها عنوان عشرة من أصدقائى في جميع أنحاء العالم لكى يبعثوا لهم بهدايا من الشاى الفاخر الذى لا يباع في الاسواق .. واننى أعطيتهم عناوين عشرة من الاصدقاء .. واننى عندما عدت الى القاهرة وجدت الشركة قد أرسلت لكل واحد منهم كيلو جرامين من الشاى الطسويل المعطر .. وقيل لى انه شراب الملكة اليزابيث المفضل .. وكم كان حزنى عميقا .. وكم كانت فرحة أبناء أوغنده هائلة .. عندما قلت لهم اننى نسيت أن أعطى للشركة عنوانى ! ..

ولكن هذه الشركة عندما علمت بهذا المقلب الذى أوقعت نفسى فيه أرسلت لى كمية أخرى من الشاى المعطر ..

ولا أعرف ما الذى منع هؤلاء الاوغنديين أن يطلبوا منى ان أعمل معهم في البوفيه .. ولا داعى للعودة الى القاهرة ..

وسألت جادا : أين نحن ؟

قالوا : أنت في أوغنده .. وهذه مدينة عنتيب ..

لا أعرف الكثير عن هذه المدينة .. ولو تركنى وحدى هذا الجرسون الذى أعجب ببراعته فى صناعة الشاي لعصرت ذاكرتى بحثا عن دلالة هذه المدينة .. الآن فقط أستطيع أن أجد عندى بعض المعلومات .. فهذه المدينة كانت تابعة لمصر يوما ما .. فقد كانت العاصمة القديمة لاوغندا .. أما العاصمة الآن فهي كمبالا التى يعرفها عشاق كرة القدم .. فقد أجريت فيها مباريات كبرى بين مصر ودول الدورة الافريقية .. والجيوش المصرية أيام الخديو اسماعيل قد رفعت العلم المصرى على هذه المدينة وعلى غيرها .. ويوجد اثر للمصريين فى أماكن مختلفة من البلاد ..

ويمكننى أن أفسر سبب الضحك الغريب الذى كان تعليقا على اسمى عندما سألتنى أحد الجرسونات عن اسمى ، ونحن منهمكون فى صناعة الشاي ، فقال : آه .. أمين باشا ١٩

وسأله : كم عمرك ..

قال : سبعون عاما ..

وكان يبدو فى الأربعين .. وسيظل يبدو كذلك ما دام يضحك طول الوقت ويفعل همومه أولا بأول ..

وأمين باشا هذا الذى أضحكه .. هو أمين باشا محمد .. وهو الطبيب الالماني الذى عينه غوردون باشا حاكما على المحسافطة الاستوائية بأمر الخديو اسماعيل يوم كان العلم المصرى يرفرف على هذه البلاد .. وأمين باشا هذا كان طبيبا ممتازا .. وكان يتقن عشر لغات وعشرات من اللهجات الافريقية .. وقد اشتغل فترة طويلة فى قصر السلطان بتركيا .. ولذلك اتخذ لنفسه هذا الاسم التركى .. وان كان لم يعتنق الاسلام ، واسمه الحقيقى هو ادوارد. اشنيتسلر وقد أوفدته الحكومة الالمانية ليوسع حدودها الى ما وراء تنجانيقا التى كانت مستعمرة المانية .. وحاول كثيرا .. ولكنه سقط فى أيدي تجار الرقيق فقتلوه سنة ١٨٩٢ ، وكان فى الثانية والخمسين من عمره . ولم يترك كتباً عن مغامراته ، وان كانت بعض المجلات قد نشرت مقالات كثيرة يتحدث فيها عن هيامه بجمع النباتات النادرة والحيوانات الغريبة .. ويقال انه تزوج فتاة من مدينة عنتيب ..

وسألت الجرسون الذى أضحكه اسمى : هل تعرف أمين باشا جيدا ..

أعدت عليه السؤال عندما لم ألاحظ ما يدل على معرفته لهذا الرجل فقال : أعرفه .. أنا اسمى أمين باشا محمد .

قلت : مسلم ..
قال : أولادى فقط ..
قلت : وانت ؟ ..
قال : مسيحى ..
قلت : وزوجتك ..
قال : مسيحية ..
قلت : وكيف حدث ذلك ؟
قال : يحدث هذا كثيرا ..

ولم أجد عنده تفسيراً .. ولكن يبدو أن هذا يحدث كثيرا .. أن يكون الأب مسيحياً وأولاده مسلمون ، ويحدث كثيرا أن يحتاج الإنسان الى من يشرح له ، ثم لا يجده .. ويسكت دون أن يفهم ! ..

الحمد لله .. شربت وأكلت وضحككت وأضحكت .. وجاء الليل بسرعة ليصنع لنا مشكلة جديدة : أين ننام !

وقبل أن نفكر فى النوم يجب أن ندفع ثمن الشاي .. وثمان السندوتش والخلوى التى جاءت فى حماية الشاي وبسببه ..

وتكرر الضحك بنفس القوة عندما أخرجت من جيبى بعض الفرنكات الكونغولية .. وحاولت أن أدفع .. وعرفت بسرعة أن هذه الفرنكات تشبه « بونات » بوفيه محطة مصر .. وأنا أشبه من يأخذ هذه البونات ويعطيها لجرسون فى محطة روما .. مضحكة .. وأنا مضحك ! ..

وكانت فرصة لأمين باشا أن يصر على أن يكون الحساب عليه هو ..

وشكرنا أمين باشا وتمنينا له طول العمر والصحة وأن يظل بيته عامراً ..

وقبل أن نفكر فى أين نذهب .. هل نتفرج على المدينة .. أو هل ننام مبكراً فى الطائرة .. وما دامت الفلوس الكونغولية لا تنفع فما

الذى نفعله .. ظهر لنا رجل انجليزى .. يبدو انه من رجال
المطار ..

وسألنا : من مصر ..

قلت : نعم ؟

قال : كم يوما تبقون هنا ..

قلنا : حتى الصباح ..

قال : ما مشروعاتكم ؟ ..

قلنا : أولا نبحث عن مكان ننام فيه ..

قال : وثانيا ؟ ..

قلنا : نتفرج على المدينة ..

قال هو فى رقة جادة : اذن نبدا بثانيا ؟ ..

ومشينا معه ووراءه دون أن نسأله من هو وما شأنه .. ولكن
لم يكن من الصعب أن نعرف انه أحد رجال السلطة جاء لمراقبتنا
بصورة رقيقة ، وأخذنا فى سيارته ، وذهبنا جميعا الى أحد محلات
البقالة .. المحل هندى .. والهنود كثيرون هنا وفى كل المستعمرات
البريطانية الاخرى .. وشربنا شايا .. وفى المحل قابلنا عددا من
المواطنين وسألونا عن بلدنا .. وماذا نصنع .. ومن الغريب أنهم
سألونا عن بعض الصحف المصرية .. وبعض الكتاب المصريين ..
وعن موضوعات محددة نشرتها الصحف المصرية أنهم من طلبة
الجامعة الازهرية !

وانصرفنا .. فى سيارة الضابط الانجليزى .. واتجه بنا الى
أحد الفنادق .. وأوصلنا الى باب الفندق .. وتأكد من دخولنا
ومن وقوفنا أمام صاحبة الفندق .. ومن أننا كتبنا استمارات
الاقامة وسجلنا أسماءنا وأرقام جوازات السفر .. وودعنا الرجل
وشكرناه .. ووعدنا بالعودة فى الصباح ليرافقنا الى الطائرة ..

والفندق من طابقين .. وكل الفنادق الاستوائية .. مليء
بالاشجار .. وعلى النوافذ ستائر من السلك ضد الحشرات
والبعوض بصفة خاصة .. وفى كل غرفة جهاز تكييف .. وفى الطريق
الى غرفتنا مررنا بالمطعم .. ثم حبسنا أصواتنا وانفاسنا عندما
وجدنا المطعم مليئا بالناس ولكن أحدا لا يسمع لهم صوتا .. وهم
جميعا بالملابس الكاملة .. الرجال بالبدل والكرافته .. والسيدات
بالسواريه .. ونحن قد ارتدينا ما يشبه « العفريته » .. والهدوء
والدفع والانوار الناعمة والاطعمة الشهية والاكواب الزجاجية

الطويلة .. والالوان على الجدران والمقاعد والستائر والفساتين
والليل والجوع والحرمان يحرك المعدة والقلب ويجعل النوم حراما
على كل من عنده احساس أو ذكريات ..

ولكن لا وقت للذكريات ..

ويظهر أنه لا مفر من الذكريات المؤلمة على الاقل .. فعندما
تأملت وجه السيدة صاحبة الفندق .. كان الوجه مألوا ..
لا أعرفها .. ولكن أعرف مثل هذه الملامح .. وسألتها : من أين ؟

قالت : من القدس ..

قلت : العربية ؟

قالت : لا ..

قلت : .. وتكلمين العربية طبعاً ؟ ..

قالت : طبعاً ..

قلت : بايخة ! ..

ولم أقلها بصوت مرتفع .. فقد علق بعض الزملاء على ملامحها
وعرفوها .. وعلى أنفها وعلى شعرها المنكوش وعلى التكشيرة التي
تزداد لحظة بعد لحظة .. وعلى أنها نبهت الى ضرورة التزام
الهدوء .. الذي التزمناه بالفعل ! ..

وفي الغرفة وجد كل منا ما يحتاج اليه ..

وجدنا سلالا من الفاكهة .. فاكهة نعرفها وفاكهة لا نعرفها ..
وأهم من هذا كله وجدنا الدش .. وأهم من الدش وجدنا السرير
.. وأهم من السرير وجدنا النوم ..

وكان الصباح جميلاً ..

كل شيء هادئ .. الغرفة نظيفة .. الالوان بيضاء السرير
والغطاء .. والجدران .. والاكواب .. والالوان كلها خضراء
ووردية .. ومن النافذة بدت الحديقة فاتنة .. الاشجار مليئة
غنية الأوراق والثمار .. والطيور ثرثارة ولكنها متنوعة ..
والفندق يشرف على المدينة .. ويتوارى خلف الاشجار حتى
لا يبدو مشرفاً بالفعل ! ..

ودق جرس التليفون في الغرفة .. ولم تمتد اليه يد .. فنحن
لا نتوقع شيئاً ولا أحداً .. ونحن نعرف مقدماً ما سوف يحدث ..
وان كنا نتمنى أن يحدث شيء يجعلنا نبقى هنا يوماً أو يومين ..

وفي التليفون سمعت ان الضابط الانجليزى فى انتظارنا .. انه ضابط أمن نشيط .. انه يريد أن يطمئن على أننا سوف نسافر اليوم ، ولم يقل فى التليفون انه يتمجل أحدا .. وانما فقط يريد أن يقول لنا انه موجود ..

وكان فى نية أحد الحاضرين أن يسأل عن فول مدمس .. ولكنه تراجع عندما تذكر هذه السيدة صاحبة الفندق .. واكتفى بالشاى والبيض والزبدة واللبن ..

وفي هذا الجو الاستوائى قررت أن أتناول افطارا من نوع خاص .. يذكرنى بأيام الهند وسيلان واندونيسيا .. فطلبت بيضا بالطماطم والفلفل الأخضر والاحمر .. وطلبت كوبا من عصير الطماطم بالشطة .. ثم طلبت شرائح من الاناناس .. وشرائح من البابايا .. وبعض البندق الهندى .. وكوبين من الشاى الانجليزى «المعبر» ولا بد من اضافة هذه الصفة لان لونه أحمر ذهبى ورائحته كرائحة العنبر الوردى ..

ووجدت فى هذا الافطار تعويضا سخيا عن كل ما حدث فى الاربع والعشرين ساعة الماضية .. ورضيت عن التعويض ، واسترحت نفسا وجسما .. وكان هذا واضحا تماما فى مصافحتى للضابط الانجليزى الذى بدا أكثر انتعاشا منا جميعا .. وكان من الواجب أن أسأله كيف نام وأين وماذا أفطر صباحا لعلنا نعرف سر هذه الحيوية والشباب واليقظة .. ولم أجد مبررا لذلك فالذى أشعر به ارضائى وأشبعنى وأمدنى بقدرة على احتمال الطائرة حتى نعد الى القاهرة ..

ونقلتنا السيارة الى المطار .. والسيارة هى التى نقلتنا وليس الضابط .. فلم نشعر به .. لانه لم ينطق بكلمة واحدة .. كأنه يتوقع أن نقول شيئا .. أو كأنه يدخر قواه لينفقها فى عمله .. أما نحن ففى الطريق الى عمله .. وعندما دخلت السيارة أرض المطار رأينا الطائرة .. وقد وقف عند بابها الخلفى ذلك المعجوز ادوارد وواضح أنه ينتظرنا .. تماما كما يفتح بقال ريفى دكانه وينتظر الزبائن الذين لا يفتحون النفس الى العمل كأن يشتروا بقرش شاى وبقرشين سكر .. وأشياء تافهة أخرى ..

وصافحتنى الضابط الانجليزى وشكرناه وتقبل منا الشكر الذى يتوقعه ويستحقه .. ايا كان السبب .. ودخلنا الطائرة .. واقفل الباب .. ودارت المحركات .. وأسندنا الظهر الدافئة الى الجدران

الدافئة • ومددنا أقدامنا • وتعالى أصواتنا بالضحك وبالكلام •
ولم نلتفت الى الكابتن أو العجوز ادوارد • • ولا نعرف كيف ان
المسافة بين عنتيب والقاهرة كانت قصيرة الى هذه الدرجة رغم انها
استغرقت سبع ساعات • •

ومن النافذة رأينا القاهرة • وهبطت الطائرة • وصافحنا الكابتن
وزميله والعجوز ادوارد • ونزلنا في مكان بعيد من المطار • ولم
تكن هناك أية سيارة تنقلنا من مكان الطائرة الى المطار • • وكانت
المسافة طويلة • •

• • وفي وضوح النهار ظهر الاعياء علينا • • وعلى ملابسنا المتكسرة
المليئة بالبقع • • وعلى أحذيتنا التي تلطخت بالطين • • ودخلنا
المطار وسألونا : من أين ؟

قلت : من الكونغو •
أما كيف خرجنا • • وكيف نزلنا وكيف صعدنا وكيف عدنا • •
فالجواب : ان كل شيء تم بالليل وبسرعة • • بالليل هنا • • وبسرعة
هناك • • حيث لا حكومة • • لا جيش ولا بوليس • • وحيث البلاد
مفتوحة كالسما • • لا أحد يعرف الداخل ولا الخارج ولا أحد
يهمه أحد • •

أما شهادة التطعيم والحقن فهي التي فتحت الباب الخارجى الى
البيت • • بينما ظل بعض الزملاء فى المحجر الصحى أسبوعين
آخرين • • فلم يتمكنوا من الحصول على شهادات دولية • • أى أنهم
سافروا الى الكونغو وعادوا فى ثلاثة أيام • • ولكنهم لن يسافروا
من مطار القاهرة الى القاهرة نفسها الا بعد ١٤ يوما !

وفى الطريق الى القاهرة سألتنى أحد الزملاء : نفسك فى ايه دلوقت ؟
قلت : بصراحة واخلص • • نفسى أسافر الى الكونغو • •
وكمن سمع - نكتة - بايخة قال الزميل : أنا حرمت أسافر
معاك • • انت رحلاتك انتحارية ! •

ليست انتحارية • • ولكن أريد ان أعرف ان أفهم • • ولم يتسع
وقتى لكى أفكر وأدبر • • وأتدبر • • فكأننا ذهبنا الى زيارة اناس
قد دخلوا الفراش وشربوا عشرات من الحبوب المنومة بينما شربت
عشرات من فناجين القهوة السادة استعدادا لهذا اللقاء والحوار • •
وكل الذى دار بيننا هو اننا تجاذبنا الغطاء • • أنا أسحبه عنهم وهم
يشدون • • وغلبنى التعب وغلبهم النوم • •
• • • ثم غلبنا جميعا ! • •

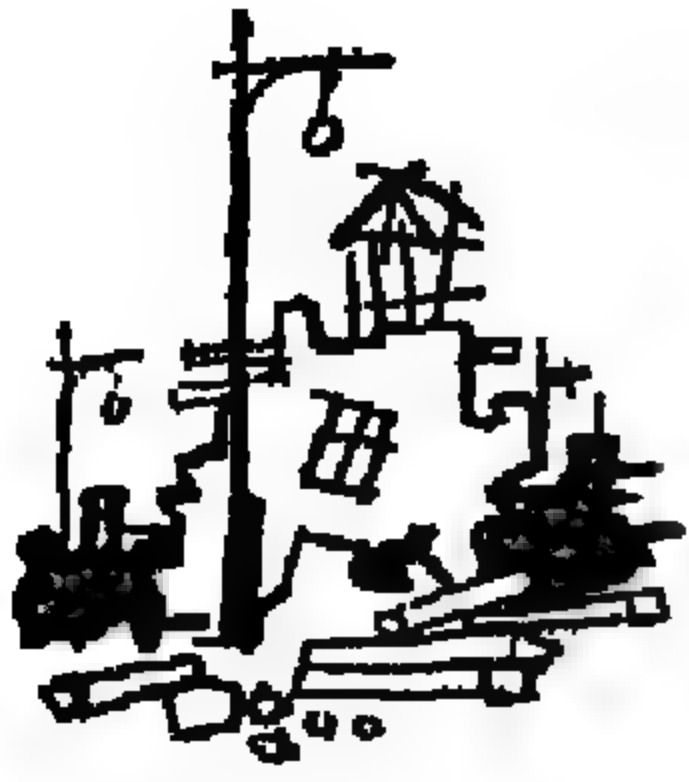


كانت فوق الجميع ..

أصبحت تحت الجميع ..

.. وظلت عملاقا دائما !

صنع في ألمانيا!



أكبر غلطة لغوية !

كانت

ذلك في الحفلة التي أقامها مصدر و الارز في مدينة همبورج .. جاء دورى فى الكلام . فقلت : اننى قد رأيت ألمانيا ٥١ مرة .. وفى كل مرة أجد تغيرا عجيبا .. الشوارع المنهارة المظلمة تحولت الى فترينات باهرة .. والعمارات كأنها اختفت تحت الارض بسبب الفارات الجوية .. ثم أعيدت الى وجه الارض .. ان الالماني يطبقون شعار دافنشى الذى قال : اننى لا أصنع التماثيل اننى أكشف عنها الحجر فقط .. انها معجزة ؟

وواضح من الذى قلته اننى معجب بالعصرية الصناعية ، والمعمارية الألمانية ..

ولكن الالماني لم يفهموا هذا المعنى الذى قصدته .. فقد نهض واحد منهم غاضبا ساخطا ليقول : انها ليست معجزة ياسيدى .. ان المنديل الذى كنت امسح به عينى كنت امسح به أنفنى أيضا .. اننى حملت ابنى وزوجتى على ظهرى من برلين حتى وصلت الى هذه المدينة ..

وجلس .. ولم أفهم شيئا ..

وانتهت الحفلة . ولم أتمكن من أن استوضحه .. ولا أعرف أين المكان الذى أوجعته من جسمه أو من نفسه .. اننى لم أتعرض الى قفاه أو ظهره .. ولم أقل انه كالحصان يستطيع أن يجر عربة .. وان يحمل زوجته وابنته على قفاه .. ولم أقل أنه من الواجب أن يفعل الانسان ذلك ..

وسألت عن سبب غضب هذا الرجل من اعجابى بالشعب الالماني ونشاطه الغريب . وكان الاعتراض على استخدامى لكلمة « معجزة » . أنا استخدمت الكلمة بحسن نية .. وهو قد فهم شيئا آخر .. أما المعنى الذى أقصده فان الذى حدث فى ألمانيا شيء لا يصدق العقل ..

أى شيء فوق العقل العادى .. أى شيء يعجز عنه أى انسان عادى .. أو أى شعب عادى !

أما الذى فهمه هو - وهو أحد أحفاد الفلاسفة الألمان كانت وهيجل ونيتشه - فهو أن المعجزة معناها أن السماء هى التى تدخلت فى كل شيء . وأن الشعب الألمانى لم يفعل أى شيء . وقد يكون من المعانى التى خطرت على باله أن الأمريكان - أى قوة خارجية بفلوسهم وصناعتهم - هم الذين انقلدوا الشعب الألمانى . .

والمعنى الأول لم يخطر لى على بال . . بينما المعنى الثانى وهو ممكن ، فلم يخطر لى أيضا على بال . وإنما الذى أحسست به هو هذا الفارق بين ألمانيا بخرايبها فى سنة ١٩٤٩ وألمانيا التى رأيتها بعد ذلك فى سنة ١٩٦٧ ..

وهذا الموقف يضعنى فى المكان المناسب لنفهم أوضح وأسلم للألمان .. فهم ماديون . مكتئبون .. أو لكى أكون عادلا : أقول أن طريقتهم فى الكلام والفكر والحياة مختلفة عنا . وليس من الضرورى أن يتفق العالم كله من أوله لآخره معنا لكى نفهمه - أو لكى أفهمه - على النحو الذى يريحنى ! ..

وهذا يجعل المسافر الى ألمانيا أو الذى يعيش فيها أن يسأل نفسه من هم هؤلاء الناس ؟ ما هو تعريف المواطن الألمانى . ربما كان معناه : النظام والطاعة والهمجية والقسوة والطاقة على العمل والصبر والغلظة وحب الموسيقى وحب الحيوانات والانديفاع والغموض ..

وإذا قارنت الألمانى بالفرنسى وجدت هذا الاختلاف الهائل بين شعبين تجاوزا مئات السنين .. ولكن ماتزال المسافة بينهما أبعد بزمان جدا مما بين باريس وبون . فالرجل الفرنسى - من وجهة نظر الألمان - : مبهدل فى مظهره ولكنه ذكى .. لاصبر له على العمل ولكن إذا عمل كان فى غاية الكفاءة .. ولديه قدرة عقلية فذة .. وصحيح أن الفرنسى ليس عاطفيا كالألمانى ، ولكنه عاشق من الدرجة الأولى !

أما رأى الفرنسى فى نفسه فهو أنه أسمى وأكثر إنسانية ، ولكنه ينظر بحسرة الى الانجازات العظيمة التى حققها الألمان فى كل العصور !

تصادف أن ذهبت الى مدينة ميونخ من عشرين عاما ، وكانت هذه

أول زيارة لالمانيا .. وكانت المدينة ماتزال محطمة .. ولكن ظهرت
العمارات الجديدة والشوارع المضيئة .. ثم كانت هناك محطة
السكك الحديدية الضخمة .. ووجدت غرفة في بنسيون اسمه :
بنسيون « الشاعر جيته » .. وأعجبني الاسم . ولم تكن هناك أية
صلة بين اسم الشاعر والبنسيون .. تماما كما لا توجد أية صلة بين
لوكاندة البرلمان عندنا والبرلمان ..

والبنسيون متواضع . ولكن من المؤكد أنه نظيف ..
وعرفت في أول ساعة من دخولي البنسيون أنه لا توجد حنفيات
للماء .. فالعمارات منهارة .. ولم يتم بعد اصلاح وابور الماء ..
أذن لابد أن أغسل وجهي في الطشت .. فهناك طشت وابريق .
وصاحبة البنسيون في انتظار اشارة مني .. وجاءت وغسلت وجهي
.. وغسلت قدمي .. وشكرتها .. ولم تعتذر عن الطشت والابريق
.. فمفروض أن عندي نظرا .. فالبلد مهدمة .. وهذا هو
أحسن ما تستطيع ..

وكان يسكن في غرفة مجاورة شاب فرنسي . وأثناء الافطار تعارفنا
وتحدثنا .. وصارحنى بالسبب الحقيقي الذي جعله يرفض استخدام
الطشت والابريق .. فقال : أننا تجاوزنا هذه المرحلة من
مئات السنين ..

ولم أفهم . وسألته : ماذا تقصد ؟
فقال : ان منظر الطشت يجعلني أعود الى أيام الامبراطور نابليون
الثالث .. وتلك أيام لا أحبها !

بعبارة أخرى لا يعجبه الطشت والابريق ..
وأنا لا أعجبني ولكن ما الذي يمكن أن أصنعه .. ان البنسيون على قدر
فلوسى وقلوسه أيضا . ثم ان الناس هنا معذورون في ذلك الوقت ..
ثم انهم لا يقلون حضارة عن الفرنسيين .. ولكنه فرنسي يعيش
في ألمانيا !
ولا هو أحب البنسيون ولا صاحبة البنسيون أحب هذا الشباب
.. ولا كل الفرنسيين !

وعندما سقطت ألمانيا سنة ١٩٤٥ فوجيء الماريشال الألماني كايتل
أثناء توقيع التسليم بلا قيد ولا شرط بأن مندوبا لفرنسا جاء يوقع
على التسليم .. فقال :

وفرنسا أيضا ؟

يقصد وفرنسا التي هزمها الالمان سنة ١٩٤٠ فانتهدت كدولة كبرى
.. ان هذا الموقف المهين لالمانيا ، لم ينسه الالمان .. ولم ينسه
الفرنسيون أيضا !

ولم تستطع السيدة صاحبة البنسيون أن تخفى شعورها ..
فأشارت الى ذلك ..

وكان ذلك منذ وقت طويل .. ولكن الالمان الآن قد نسوا .. أو
حاولوا نسيان ذلك ..

فالمانيا تغيرت معالمها ..

نهضت المدن والمصانع والشوارع . وامتألت المحلات التجارية
وانتقل العمال الى المانيا من كل الدول الاوروبية .. فالالمان عندهم
كثير من الرؤوس وعدد قليل من الايدي .. فعندهم المهندسون
والاسطوانات والعمال المهرة ولكن ينقصهم العمال فقط .. الايدي
فقط ..

ويظهر ان الالمان أحسوا بأن جيل مابعد الحرب ليس صلبا ولا
متماسكا كما يجب ولذلك اضافوا الى كل مصنع « مدرسة للتأهيل
المهني » .. واستخدموا فيها أساليب التدريب العنيف .. وبعض
المدارس لجأت الى الضرب ..

أذكر أنني حضرت إحدى ولائم الغداء في مصانع شركة «ديماج» .
وقد حضر عدد كبير من الخبراء والاداريين .. وعدد من الشبان
المصريين الذين يتدربون على العمل هناك . سألت جاري : وكيف
حال الشبان المصريين ؟

فأشار الى مهندس الماني آخر وطلب اليه أن يجيب : وهذه الحركة
مألوفة في ألمانيا .. فكل واحد يتحدث في اختصاصه .. مهما كان
هذا الاختصاص تافها . ونهض المهندس المشار اليه وقال : بصراحة
أنا لا أحب هذا النوع من الشبان ..

يقصد الشبان المصريين .. وقال : انهم أكثر اهتماما بالفتيات
الالمان .. اننا نشكر لهم هذا الاهتمام ولكن بشرط أن يكون في أوقات
فراغهم .. أنا لا أفهم ما معنى أن يحمل كل واحد منهم صورته في
جيبه أو يضعها أمامه في الورشة .. !

واحمرت وجوه الالمان . واحسست ان شيئا غريبا قد حدث أو

سوف يحدث .. وان هذا المهندس الالماني قد أخرجهم .. وانه ليس من اللائق أن يصارحنى حتى بكل الحقيقة ..

ودار همس وتجاوزت رؤوس .. وسمعت المهندس الكبير يقول :
اننى صريح .. أنا رجل عسكرى .. ولا أحب الميوعة فى الشبان ..
من أى بلد !

وسمعت أن هذا الرجل قد وجد شابا يمضغ اللبان فأخرجها
من فمه بالقوة وعاقبه ..

ولابد أن مثل هذه التربية الشديدة هى التى أقامت ألمانيا على
قدميها .. عملاقا صناعيا غنيا من جديد وطفلا ذليلا فى وزارة
الخارجية الامريكية .. ولا بد أن هذه الدلة هى التى جعلت ألمانيا
تقف الى جوار اسرائيل .. فى تسليحها وتمويلها .. وفقدت
بذلك أرضا وملايين العرب من الذين كانوا يعجبون بالصناعة
الالمانية قبل الحرب العالمية الثانية .. وكان يكفى أن يجد المواطن
العربى عبارة : صنع فى ألمانيا .. ليشتري ودون تفكير ..

وعلى الرغم من أن المصانع الالمانية الكبرى قد فككت بعد الحرب
وأرسلت الى دول الاحتلال الرابع .. ومسحت الارض قبل ذلك
بالقنابل ، وقتل عشرة ملايين شاب ألماني ، فان هذه المصانع أعيدت
من جديد .. وحولها البيوت .. والمعاهد والمدارس والمتاجر ..
وأصبح الالمان مثل أغنياء الحرب .. فهم يقضون الصيف فى ايطاليا
وفى أسبانيا وفى اليونان .. ثم هم بعد ذلك يستثمرون أموالهم
فى كل مكان فى العالم .. بل انهم أقرضوا أمريكا وبريطانيا
ملايين الجنيهات الذهبية !

وهذا الوضع يضاعف من تعقيد الشخصية الالمانية ومن تناقضها

بل أن هناك أكثر من ألمانيا ..

فهناك ألمانيا الشرق .. وألمانيا الغرب ..

وهناك النمسا التى تتحدث الالمانية ..

وسويسرا التى تتحدث الالمانية ..

وكانت هناك دائما أقليات ألمانية فى معظم الدول الأوروبية ..

فى تشيكوسلوفاكيا .. والمجر وبولندا .. وكانت هناك مدينة
دانزج الحرة ..

وألمانيا نفسها دولة مفتوحة الحدود .. انتصرت وانهزمت ..
واحتلت بلادا واحتلتها بلاد .. وحطمت وتحطمت .. فى كل
الحروب الاوروبية .. فهى مصدر كل هذه القلاقل ..

ولذلك فالألمان هم الشعب الملعون فى كل أوروبا ..
والناس ينظرون الى الألمان فى البلاد المجاورة على أنهم أناس
متوحشون ..

أذكر اننى كنت فى أحد المحلات التجارية فى مدينة انسبروك
بالنمسا . ولاحظت أن البائعات يتغامزن . وعندما نظرت أستوضح
اقتربت منى بائعة وقالت : انهم ألمان !

قالتها بشيء من الضيق ..

ولكن الألمان هم نصف تاريخ الموسيقى فى العالم كله .. فهم
أحفاد فاجنر وباخ وبيتهوفن وشوبرت وشوبان واشتراوس
وموتسارت ..

ولكن الألمان لم يتفوقوا فى الغناء والابورات ..

ولم يتفوقوا فى الرسم ولا النحت ..

وهناك مثل يقول أن الانسان يتعثر فى الفلاسفة والموسيقين
فى الغابات والوديان الألمانية ..

والفلاسفة الألمان من كل الأنواع : مثاليون جدا مثل : هيجل
وفخته .. ماديون جدا مثل : ماركس وانجلز .. وأنصار حياة
مثل : نيتشة .. وأنصار موت مثل : هيدجر ..

بل اننى وجدت فى مدينة تبنجن بيتا صغيرا متواضعا جدا على
نهر يتمسح فى الاحجار .. فى هذا البيت أقام ثلاثة من عباقرة
ألمانيا هم : هيجل وفويرباخ والشاعر هيلدرن .. وكان الثلاثة
فقراء .. وكانوا يقتسمون هذه الغرفة الصغيرة التى تحولت
الى متحف ..

وفى هذه الغرفة عاش الشاعر الألماني هيلدرن أربعين سنة ..
وبعدها انتقل الى مستشفى الأمراض العقلية ليعيش أربعين سنة
أخرى ..

والثلاثة مختلفون في تفكيرهم .. هيجل رجل مثالي يؤمن بالروح المطلقة وبالإمبراطور والدولة .. وكل ما هو مجرد .. وفويرباخ رجل ملحد مادي عملي .. لا يطبق هذه التجريدات الفارغة .. أما هيلدرن فهو عميد الشعراء الألمان ونبههم أيضا .

وهذا الشاعر عاش محروما من كل أوليات الحياة المادية والاجتماعية .. ولم يكن يستطيع أن يلمس أصابع فتاة إلا بصعوبة .. فقد كان عليه أن يعطى دروسا لأحدى الفتيات لكي يلمس يديها فقط .. ولما أحس أن الفتاة تنظر إليه بشيء من الشفاق - هي غنية وهو مدرس فقير .. ولم يكن أحد يعرف أنه سوف يصبح عبقريا مجنونا بعد ذلك - قرر أن يأوى إلى فراشه وأن يكتفى بهذا الشعور من جانب الفتاة .. هي حسنة النية وهو لا يطيق أن يكون مثيرا للشفقة !

وعندما ذهبت إلى بيت الشاعر هيلدرن كان الباب مغلقا . خبطت على الباب . فتحت سيدة تسألني ما الذي أريده . وواضح من شكلي أنني لا أريد شيئا منها . وإنما أريد أن أرى فقط أين كان ينام ويحاول الانتحار هذا المسكين العظيم .. وهو مسكين مرة أخرى لأن هذه السيدة قد اشترت البيت الذي كان يسكنه الشاعر .. وفتحت السيدة الباب وأقفلته ورائي . ولم تقل لي كلمة واحدة . وإنما أشارت بيدها إلى الغرفة الصغيرة النظيفة : وهي غرفة طالب بها سرير ومكتب . ولا يوجد بها كتاب واحد ..

وهذه الغرفة لا يمكن مقارنتها بالبيت الذي كان يسكنه الشاعر جيته في مدينة فرانكفورت . فهو بيت أمير الشعراء الألمان ووزير المعارف في حكومة فيمار .. وهو حكيم الشعراء وفيلسوفهم ..

وهذا البيت لا يشبه أيضا بيت الموسيقار بيتهوفن في مدينة بون .. فالبيت كله من أوله لآخره قد خصص للموسيقار .. وكان الموسيقار يقيم في بعض الغرف الضيقة في الطابق الثاني .. فما تزال هناك بعض الحلل والأواني .. وخصلة من شعره . ومخطوطات بقلمه .. وتوجد هناك « السماعات » النحاسية التي كان يضعها على أذنه عندما أصيب في أذنه .. وهذه السماعات تسجل تطور

الإصابة عنده .. فما زالت هذه السماعات تكبر وتكبر حتى أصبحت فى حجم بوفى الفونوغراف القديم .. أو حجم قمع الجاز الذى يستخدم فى دكاكين البقالة فى الريف ..

وبيت بتهوفن أحسن حالا من بيت الموسيقار موتسارت فى مدينة سالزبورج بالنمسا . فهذا البيت قائم فى السوق .. والسكنم ضيق .. والغرف مظلمة وضيقة أيضا .. وكل شىء فى البيت الصغير .. أى على مقاس موتسارت .. فقد ظهرت عبقريته وهو طفل .. وكل شىء فى البيت يؤكد هذا المعنى : الطفولة العبقريّة ..





صنعت في أمريكا : إجليلة !

التغيرات التي لم تعجبني في ألمانيا - هذا مجرد رأى سائح يريد أن يرى ما يعجبه . وطبعاً ليس لدى ألمانيا أى استعداد أن تفعل ما يعجبني ومن أجل عشرين أو ثلاثين جنيها أنفقها في ألمانيا كل سنة - لقد تحولت مطاعمها وحاناتها ذات الطابع الالماني القديم الى قاعات أمريكانية . .

وأنا أذكر أنني عندما ذهبت الى « حانة ميونخ » الشهيرة بأن هتلر كان يعقد اجتماعات النازي فيها ، كانت المناضد طويلة كبيرة . . وكنا نحن الزبائن نجلس متجاورين . . متشابكين أيضاً رغم أننا لا يعرف بعضنا البعض . . فاذا جاءت الجرسونة الضخمة وألقت بالأكواب والأطباق واللحوم على الموائد الطويلة امتدت الأيدي وتشاركت وتشابكت . . واهتز الناس يمينا وشمالا . . ومع الاهتزاز تلتقى الأجسام والخدود والشفاه . . شفاه غريبة . . ولكنها تتعارف بلغة عالمية . . وتختفى الوجوه في عنقاك كله ابتسامة وسعادة . . والموسيقى تعزف ألحانا لا يعرفها السائح الغريب . . وكما يفعل الالمان كنا نفعل . . يقفون على المناضد . . نقف . يغنون . . نغني . يرقصون . . نرقص . الأذرع ممدودة والشفاه جاهزة . والابتسامات حاضرة والضحك أعلى من الموسيقى . . ولا أحد يعرف أحدا .

وعندما جاء قائد الأوركسترا واختارني من بين كل الواقفين على المنضدة صفق لى كل من في قاعة ميونخ . . وسرت وراء المايسترو الى المنصة . . والموسيقى كلها تتقدمني . . ثم أعطاني عصا القيادة . . وصفق الحاضرون . . وانحنى المايسترو بعد أن ترك لى زمام الموسيقى . . وعلى الرغم من أنها نكتة . . لكن احساسى بأننى

عينت مايسترو وبلا مؤهلات ولا مقدمات وفى بلد الموسيقى ..
وكأننى بطة ألقيت فى الماء بدأت أبلبط بيدي .. والفرقة الموسيقية
تعزف ألحانا جميلة .. وراحت العصا فى يدي تعلقو وتهبط .. وأنا
فى دهشة كيف أن العصا تعرف كل هذه الألحان التى لا أعرفها ..
وانتهت الفرقة الموسيقية من العزف .. وتقدم المايسترو وأعطيته
العصا .. وشكرته .. وذهبت الى مكانى فوق المنضدة الطويلة ..
ولم ألتفت كثيرا الى التصفيق على الجانبين فلا بد أنه كان للعصا ..
أو للشجاعة الغريبة التى اكتشفتها فى نفسى .. ولاحظت أن
الجهلاء أشجع من العلماء ..

وعندما نزلت من مكانى فوق المنضدة ووجدت المايسترو وقد
خلع قبعته وانحنى ولاحظت أن الجميع يلقون بالفلوس فيها ..
هه .. فهمت .. ومددت يدي فى جيبى وأخرجت ما به ووضعت
فى القبعة .. لا أعرف بالضبط كم دفعت ..

ولكن قبل أن أترك حانة ميونخ هذه تبينت بوضوح جدا أننى
يجب أن أذهب الى السجن وأسلم نفسى فقد أعطيت المايسترو كل
ما معى من فلوس .. وليس عندى ما أدفعه للتاكسى أو الفندق ..
وأهون على نفسى أن أدخل السجن من أن أذهب الى المايسترو ..

وقبل أن أكمل هذه الجملة سألتنى فتاة - الله يخليها ويطول
عمرها - ان كنت أريد أن أسترده بعض أموالى من المايسترو ..
فهزئت كل جسمى واهتز رأسى ضمنا بما معناه : نعم .. الله
يسترك .. !

وذهبنا معا الى المايسترو . وابتسم وكأنه اعتاد هذا الموقف
وأعطانى العشرين جنيها .. وتركت له جنيها وشكرته ..
وشكرنى أكثر !

ولما رأيت هذه الحانة بعد ذلك وجدتها تغيرت .. تبدلت ..
فسدت .. أصبحت كآية قاعة فى فندق كبير .. المناضد صفت
منعزلة .. والناس قد ارتدوا الملابس السوداء المنشأة - يخص
والسقف قد امتلأ بالنجف - يخص .. والفرقة الموسيقية التى
قدتها يوما ما قد وقفت هناك بعيدا وفى غاية الاناقة والشيابة ..
والفرق واضح الآن بين الحانة زمان والحانة الآن .. انه كالفرق
بين بيت العيلة والشقق الصغيرة فى العمارات الجديدة .. بيت
العيلة هيصة وكل الناس يعرفون كل الناس .. أو من

السهل أن يتعارفوا .. أما هذه الشقق الصغيرة فكل واحد قافل بابه على نفسه .. ولا شأن له بغيره .. فهذه المناضد الصغيرة هي جزر معزولة في بحار من النظافة والبرودة .. واختفى الفالس وظهر الروك أندول والتويست والجرك - يخص ..

ولم تعجبني أيضا من الالمان هذه الوقاحة الامريكية .. فأنت تجد الرجل طويلا عريضا يمضغ اللبانة وينقلها من اليمين الى اليسار . انه حتى لا يفعل ما يفعله أبناء اليمن عندما يمضغون اللقات ويمتصونه فيتركونه متكوما في جانب الفم ولا يحركونه يمينا وشمالا بشكل يفزعك فتظن أن الحركة القادمة سوف تصيبك في وجهك ..

وعندما ذهبت الى صديق صحفى استقبلنى بحرارة . وأجلسنى بالضبط في مواجهة حذائه الذى وضع على المكتب . وكان اذا أراد أن يتأكد من شيء قاله أو قلته انما يفتح ما بين قدميه وينظر الى من هذا الاطار الجلودى .. وكنت أعرف صورتي في عينيه لانى أرى صورته بين الجزمتين .. انها تتسع وتضيق .. وكان في نيتي أن أسأله ان كان في الاستطاعة أن أضع رجلى على المكتب مثله تماما .. ولو وافق لترددت لانى أريد أن أعرف ما الذى ينصحنى به في حكاية الامبراطورة ثريا .. فقد كان يضع في فمه سيجارا ضخما .. والآن تستطيع أن تتصور الصعوبة التى أعانيها لكى أفهم منه أى شيء .. صوته هامس .. والسيجار يمتص بعض الحروف .. وما تبقى من حروف يتساقط في المرحلة الاولى بين السيجار وانفتاح الجزمتين .. ثم بين الجزمتين ... ثم في المرحلة الاخيرة عند أذنى التى لطشها الهواء البارد فوضعت فيها قطعة من القطن ..

وكان المفروض أن أشهد طلاق الامبراطورة ثريا .. فقد تقرر أن يعلن طلاقها من الامبراطور في وقت واحد في طهران وفي كولونيا حيث السفارة الايرانية .. وكان من رأيه أن أذهب الى السفارة وليكن ما يكون . وذهبت الى السفارة وانطلقت خراطيم المياه ومن ورائها الكلاب وتعلق الصحفيون بالسيارات وبفروع الشجر .. ورأيت ثريا بفستانها الاسود .. ويبدو أن ثريا قد اختارت لون النهار والليل أيضا .. فقد كان النهار أسود والليل كذلك .. فلم أفصح في أن أراها عن قرب أو أتحدث اليها ..

ونصحنى الصديق صاحب الجزمة اياها أن أذهب معه الى صديقة

له تعمل فى الصالون الذى تتردد عليه ثريا .. وذهبت . وتهامسا وتلامسا .. وتعانقا .. ولم أكن فى حاجة الى أن أسأل عما اتفقا عليه .. وفى اليوم التالى كان معى نسخة مكتوبة من الحديث التليفونى بين ثريا والامبراطور .. وعلى جانبى الخط كلمات : ياروحى .. يا حبيب قلبى .. يا حبيبة قلبى - الله امال اطلقوا ليه ؟!

هذه العبارة الاخيرة لم يقلها أحد . انا الذى قلتها . وأظن أن الحق معى . وتم الطلاق الامبراطورى ..

وبدأت أطارد الامبراطورة .. هى فى سيارتها وأنا فى القطار .. وكانت مطاردة مضحكة .. تماما كما أطارد شعبانا فى أواسط أفريقيا وأنا ما أزال فى القاهرة .. كل ما أعمله هو أن أتجه فقط .. الى مكان الشعبان .. ولكن من المستحيل أن أصل اليه ..

ودعائى الصديق الصحفى أن أمر عليه فى البيت .. وذهبت ووحده يتناول غداءه .. ولم يقل لى تفضل .. لاقول له : شكرا .. سبقتك . مع أننى لم أكن قد ذقت أى طعام .. ولكن أمام نذالته لا بد أن اتخذ مثل هذا الرفض .. ولم يعجبنى هذا الموقف لانه لم يمكننى أن أرفضه !

يمثل هذه التصرفات الصغيرة كثيرة .. وكلها تدل على أن الالمان قد تعبوا من النظام الدقيق فى كل شىء .. وبدأوا يخففون القيود .. أى بدأوا يهونون الامر على أنفسهم ..

واذا كان فى المانيا شىء من الانحلال ، فهذه علامات العصر الحديث ، فى أوربا كلها .. ولم يخل عصر من العصور ولا دولة من وجود انحلال .. أو ضعف جسمى أو نفسى .. فالضعف صفة من صفات الكائنات الحية . والدول كائنات حية .. أو تتكون من ملايين الكائنات الحية التى جعلتها الحرب الاخيرة تكفر بالقيم والمبادئ .. لانها ضحايا المبادئ العتيقة .. ولا بد أن تستسلم لحالة تستريح فيها من المبادئ .. أى تكون فى حالة أجازة طويلة من المبادئ الاخلاقية والاجتماعية .. فى حالة تمرد على الاوضاع .. على المجتمع .. على النفس .. ولكنها بعد ذلك تعاود الوقوف فى الطابور .. والمشي على الخط .. والاتجاه الى المصانع والمكاتب والآلات والمراسم والمعابد .. ولا يمكن أن يكون هذا التطور الهائل فى كل ميدان من ميادين الفكر والعمل فى المانيا مجرد صدفة ..

أو مجرد أنهم كنسوا الشوارع من أنقاض الحرب فانكشفت هذه المصانع والمعاهد والحدائق والفنادق والكباريات .. انها «المعجزة» — أى حتى لاخطيء مرة أخرى — انه المجهود العبقري الذى قام به الانسان فى مواجهة الدمار والخراب والهوان والاحتلال .. والقدرة الابداعية فى العلوم ..

والالمان يعرفون هذا التفوق فى أنفسهم . ويعتزون بذلك . وفى المعرض الدولى الذى أقيم فى بروكسل سنة ١٩٥٧ أقامت المانيا جناحا . وأهم معالم الجناح لوحة وضعت الى جوار المدخل ، دون أن يلفتوا اليها العين .. كأنها شىء عادى .. أو كأنها مجرد لوحة عليها أسماء .. هذه اللوحة عليها أسماء الالمان الذين فازوا بجائزة نوبل .. وعدد الفائزين : ٣ فى السلام و٧ فى الادب و١٠ فى الطب و ١٥ فى الطبيعة و ٢٢ فى الكيمياء !!

(عدد الفائزين بهذه الجائزة فى القارات : آسيا وأفريقيا واستراليا : رجلان أديبان .. أحدهما هندى هو طاغور .. والثانى يابانى اسمه كاوايا . وليس هذا كثيرا على الالمان .. ولكنه قليل جدا علينا .. أى على حوالى ألفى مليون نسمة !)

ويبدو أن الالمان أيضا يذهبون الى المعامل والمصانع بنفس الحماس الذى يذهبون به الى الثكنات .. ربما كانت الثكنات هى التى دفعت الالمان الى المصانع وإلى اثاره الحروب تماما كاثارة النظريات الجديدة فى كل العلوم ..

فالالمانى يحب النظام والطاير وعنده صبر عظيم .. وهذه المزايا تجعله عالما ، وتجعله جنديا .. وتجعله بارزا فى العلوم وصارما فى القتال ..

والمانيا الان محتلة فى الشرق وفى الغرب حتى لا ينهض لها جيش وحتى لا تكتوى أوروبا مرة أخرى باندفاعاتها المجنونة .. ولذلك تسربت قواها الشابة وقدراتها الهائلة الى الانتاج .. الى البناء ..

ويتولى « ترويض » الشعب الالمانى : الامريكان .. ويتولى ترويض الامريكان على ترويض الالمان أغنياء اليهود ..

فليس أسهل من أن تلاحظ أن اليهود عادوا الى المانيا بكل قوة وكل مرارة . وأنهم بدأوا يضطفون على الالمان ليكفروا عن خطيئة طرد هتلر لهم من كل مكان .. وتعذيبهم واحراقهم بالالوف — واليهود يقولون بالملايين وهم كذابون طبعاً —

ففى الكتب المدرسية نجد الحياة فى إسرائيل مقررة على الطلبة .. ونجد الحياة فى المستعمرات اليهودية من ضمن موضوعات الانشاء .. كما أن دور النشر اليهودية أعادت كتابة التاريخ وأظهرت الالمان أمام أنفسهم وحوشا وسفاحين .. ان خطيئة هتلر يجب أن تظل خطيئة الى الابد .. وان الالمان يجب أن يعوضوا كل يهودى عن كل ما فقدوه .. فهم يطلبون تعويضات عن الاب والابن والبيت والسيارة والكلب والمصنع والمعبد والمكتبة .. وكل هذه الاموال ذهبت وتذهب الى اقامة إسرائيل ..

كنت فى المانيا سنة ١٩٥٧ عندما تشاجر أحد المدرسين الالمان مع رجل يهودى فى حانة وقال له : ان غلطة هتلر الوحيدة أنه لم يقتل من اليهود عددا كافيا !

وقامت الصحف وقعدت . وأثيرت هذه القضية فى البرلمان . ولعبت أجهزة الاعلام بأعصاب هذا الرجل وأعصاب الالمان . وأدعت الصحف أن هذا المدرس قد تلقى وعدا خاصا من جمال عبد الناصر بأن يعينه مدرسا للغة الالمانية فى مصر - يعنى هذا الرجل على اتصال بأعداء إسرائيل ، أى بمصر .. ومعنى ذلك أنه اضطر الى هذا الموقف .. أى أن الالمان لا يفعلون ذلك عادة ، الا بتحريض أجنبى !

وحوكم المدرس وسجن !

وارشيف وزارة الخارجية الالمانية يفتح وينقل حسب الطلب . واليهود مسيطرون على وزارة الخارجية وعلى السياسة الخارجية لالمانيا الغربية لانها دولة محتلة من الامريكان .. وبين الحين والحين تظهر علامات النازية على الجدران والمعابد .. والحزب النازى الجديد عندما انتصر فى بعض الولايات الالمانية انزعج الالمان . والصحف الامريكية . ورأوا فى ذلك بعثا وانتعاشا للعداء ضد السامية - أى ضد اليهود ..

واليهود - كما هى العادة - يتولون مهمة افساد الشباب فى العالم .. وفى المانيا يديرون بيوت الدعارة والكباريات ونشر الاباحية الجنسية والمخدرات . ومعظم الكباريات فى المانيا يديرها يهود . وفى برلين وحدها يملك شاب يهودى أربعة كباريات .. منها « عدن » .. و « جنة عدن » .. وهى أماكن لتجارة النساء من كل لون !

أما معسكرات الاعتقال فقد رأيت منها معسكر داخاو .. المعسكر واسع محيط بالأسلاك العالية .. وحول المعسكر توجد قنـسـوات المياه التي تفصل الأسلاك العالية عن داخل المعسكر .. وفي داخله غرف الغاز التي كان يوضع فيها اليهود وغيرهم من أعداء النازية من الألمان المسيحيين .. ويوجد معرض للصور .. صور المعتقلين وهم متجهون إلى المحارق .. وصور للخطابات والمنشـورات وأوامر الاعتقال .. والزوار قد مدوا أيديهم ليفقأوا كل صور لهتلر .. وتوجد مقابر لرماد الضحايا ..

والأرض في المعسكر مفروشة بالفخم الأسود .. ليشعر الزائر أن كل شيء نار ورماد .. وهنا معبد يهودي .. ويقابله كنيسة ..

وكل يوم يضاف إلى هذا المعسكر جناح جديد .. وصور وملفات ودوسيهات من كل معسكرات الاعتقال الأخرى .. والمعسكر واسع شاسع ومفتوح لكل الزوار من كل مكان .. وزيارته واجبة على كل طلبة المدارس ورياض الأطفال .. حتى يشعر كل ألماني أن أجداده مجرسون .. وحتى يشعر كل سائح أنه يزور بلادا من السفاحين ..

وإذا حاولت أن تستوضح أحدا من الألمان قال لك : نحن بلاد ممزقة ومحتلة .. والأمر ليس بيدنا ولكنه بيد غيرنا .. وغيرهم هم الأمريكان .. واليهود !

ولكنها بلاد رائعة يسكنها شعب مروع ! ..





الذين ولدوا ليعيشوا :

أى ليشربوا ويرقصوا

وليغنوا معظم الوقت !

إيطاليا.. لامرأة العشرين



صوفيا وأخواتها

عشرين عاما نشرت الصحف اننى مسافر على « ظهر »
الباحرة اسبيريا الى أوربا ..



ولم يضحك أحد لنشر هذا الخبر .. فهو خبر عادى ..
فمن الممكن أن اسافر أنا أو غيرى الى أوربا وعلى ظهور البواخر أو
الطائرات . ولكنى ضحكت لاننى سافرت على ظهر الباحرة فعلا
وليس مجازا .. وتحولت الباحرة الى حصان أو حمارة أو عربة كارو
تحمل جوانات من الشعير وأنا راكب فوقها . فلم يكن سفرى بالباحرة
على أية درجة : لأولى ولا ثانية ولا ثالثة .. وانما على ظهرها .. فمنذ
صعدت الى الباحرة من ميناء الاسكندرية وأنا على ظهر الباحرة ..
ولم يكن الليل قد جاء لافكر فى مسألة النوم وكيف وأين .. ولكن
انحصر تفكيرى فى أين أضع حقيبتي دون أن أفقدها .. وعندما
فحصت وجوه الناس لم أجد أحدا أعرفه .. ولا حتى كان المسافرون
كلهم من المصريين .. ولا حتى الذين سيشاركوننى ظهر الباحرة من
المصريين .. ووجدت الكثير من الحقائق والصناديق والناس قد
تكدسوا فى كل مكان ..

وسمعت من يقول أن البحارة يؤجرون غرفتهم أثناء الطريق ..
فكرة .. وسمعت من يقول ان البحارة يؤجرون المقاعد .. وانهم
ينصبون خيمة فى مهب الريح .. وانه من الممكن أن ننام تحت
هذه الخيمة .. ومعنى ذلك أن النوم ممكن .. ليلة وراء ليلة ..

أما الشنطة ففي استطاعتى ان أربطها فى رجلى .. أو اضعها
تحت رأسى .. هكذا قيل لى .. ولكن عندما أعدت النظرة الى
الشنطة ندمت على اننى اتيت بها .. فلا هى مليئة بالملابس .. ولا
أنا سوف أملؤها بالملابس .. ولا ضرورة لها .. وكان فى امكانى ان

اشترى كيسا من الورق أضع فيه بعض ملابسى .. واذا اتسخت أو
تمزقت ألقيتها فى البحر . فالشنطة خشبية .. وجوانبها محددة .
ولم يصنعها أحد لان ينام فوقها صاحبها وكأنه نائم على حد السيف
.. وتصورت نفسى وقد ربطت هذه الحقيبة فى رجلى .. ولسبب من
الاسباب نهضت من نومى والحقيبة فى رجلى .. وتخيلت الجنود
الانجليز أثناء الحرب العالمية الثانية .. عندما كان ماسحو الاحذية
يربطون أحذيتهم فى صندوق البوية ، فاذا حاول الجندى أن يطارده
ماسح الاحذية ، فانه يتعثر ويتشقلب .. وتتاح فرصة لماسح
الاحذية أن يهرب ..

وقد حاولت فى احدى المرات أن اهرب من مثل هذا الموقف فلم
أفلح .. فقد حدث اغنى داعبت أحد البحارة مداعبة عنيفة عندما
كانت الباخرة تمر فى مضيق مسينا بين ايطاليا وصقلية .. وكان
الليل دافئا .. وكنت متعبا فقررت أن أنام فى سابعة مبكرة ..
وتمددت على ظهر السفينة تحت خيمة منصوبة .. واحتضنت
حقيبتى .. وفعلت ما فعله كل عقلاء السفينة : ربطت الحقيبة فى
يمنى .. وفى ساقى .. وفجأة أحسست بمطر ساخن .. يغلى ..
غريبة .. فالخيمة يتساقط منها المطر الساخن .. وحاولت أن ابتعد
عن مكان المطر العجيب .. وقد حاصرني المطر من اليمين
والشمال .. وعند ساقى وعند رأسى .. وقفزت والحقيبة قد
ارتطمت بى .. وتشنكلت فيها .. ولم تكن هذه امطارا ساخنة
وانما كان أحد البحارة يلقي بالماء الساخن من ثقب فى الخيمة !

ولم يعجبني هذا الهزار الملهب فلم أتم تحت الخيمة .. وقررت
أن أظل طول الليل اتفرج فى الدرجة الاولى على الراحة التى ينعم
بها بعض الناس .. أو بعض الحيوانات .. فلم تبعد عيني كثيرا
عن كلب بنى اللون صغير قد نام على كرسى فى الدرجة الاولى ..
وهو مثل سيده قد أدار هذا الكرسى وأدار ظهره للناس وللبحر ..
أما سيده فهو الامير يوسف كمال الذى كان مسافرا معنا الى
أوروبا .. ولكنه سافر لآخر مرة ولم يعد !

وفى الصباح التالى سافرت الى أوروبا فى جوف طائرة كانت
مخصصة لنقل الماشية من الحبشة الى السودان .. ولكن الطائرة
جيدة .. ولم تترك هذه الحيوانات أى أثر فى داخل الطائرة ..
ولا حتى أية رائحة .. وانما ما تزال فيها بعض الحبال .. التى

تطورت في الطائرات الاخرى الى الاحزمة المعروفة والتي يربطها
المسافر عادة عندما ترتفع وعندما تهبط به الطائرة .. ولان
الحيوانات كانت تقف بالعرض في الطائرة ، فلم تكن هناك مقاعد
.. لان هذه المقاعد تشغل حيزا ، والمهم هو الحيوانات وليس
الناس الذين جاءوا لحماية وخدمة هذه الحيوانات .. ولذلك
عندما قررت شركة هذه الطائرات ان تجعلها طائرة ركاب ونقل
الادميين جعلت المقاعد بالطول .. فكنا نجلس متجاورين ، كما
يجلس الناس في زورق أو سفينة شراعية .. وكانت الحبال
مشدودة على بطوننا ، وكنا نمسكها ونتأرجع معها كلما حدث أى
اهتزاز ، وكان عددنا كبيرا . وقيل في ذلك الوقت ان عددنا هو
بالضبط العدد الذى يناسب الغرض المطلوب .. خصوصا اذا كان
هذا الغرض هو الفرق في البحر .. فاذا اضعنا الى عددنا الكبير
حقائبنا الثقيلة ، اندهننا للخفة والرشاقة التي تحركت بها
الطائرة من الأرض الى الجو ومن الجو الى طبقات عليا اخرى من
الجو .. أما كيف وصلت بنا الطائرة بعد ذلك فيقال انه بفضل
دعاء الوالدين .. ولان عدد اليتامى بين المسافرين كان أغلبية
ساحقة !

وكنت احدث اليتامى ، فقد توفى والدى منذ عام ونصف عام !
ولم يكن غريبا أن نضيق بهذه « الدكك » الملتصقة بجدران
الطائرة .. ونجلس على أرضية الطائرة .. وبسرعة ظهرت أوراق
اللعب والطاولة والشطرنج .. ولست متأكدا من أن أرضية الطائرة
قد تغطت بقشر الموز والبرتقال أو البيض .. ولكن من الواضح
انها تغطت بورق الصحف .. وعلب السجائر ..

وبسرعة غريبة تحولت الصفوف الطولية الى خطوط دائرية ..
ثم الى دائرة واحدة .. واهتزت الطائرة بالتصفيق .. فقد تحزمت
المضيئة الأمريكية وراحت ترقص على وحدة ونص .. ويشاركها
ويعلمها ويسدد خطاها عدد من الشبان الاشقياء .. وكانت
المضيئة تضحك وتترنج من الرقص والانبساط .. ولا يمكن أن
يتصور أحد اننا في طائرة على ارتفاع عشرة آلاف قدم وتتجه الى
اليونان بسرعة ٤٠٠ كيلو متر في الساعة ..

وفجأة ظهر كابتن الطائرة وثار وشخط ونظر ووزع اللعنات على

الجميع بالعدل أما المضيضة فانه سحبها من ذراعها وشد الستارة على كابينة القيادة .. وبعد لحظات ظهر مساعده يطلب منا أن نجلس في أماكننا وان نربط الحزام - الحبل - والا نتحرك حتى تهبط الطائرة في مطار أثينا ..

وبدأت الطائرة تعلق وتهبط .. وتميل يميننا وشمالا وتنكفيء على وجهها .. وتقف على ذيلها .. ونحن نهتز ونرتجف ونتساقط تماما كأننا غسيل منشور فوق سطوح في يوم شديد الريح .. وكانت النتيجة الطبيعية هي أن يصاب بعضنا بحالة من الدوخة والقيء والأغماء ..

وطالت الدوخة .. ومضت الطائرة في حالة من « المرمطة » .. الهواء أو الضغط هو الذي مرمطها ومسح بها السماء ثم غسلها بعد ذلك بالمطر ..

وعندما هبطت الطائرة في مطار أثينا .. ومشيت على الأرض .. واقترب منها السلم .. وانفتح الباب لم ينزل منا واحد .. فقد كنا جميعا في حالة من الدوخة المؤلمة ..

ومن وجوه الكابتن ومساعده والمضيضة التي تفيرت ملامحها تماما ، تساءلنا عن سبب غضب الكابتن .. وعرفنا أن السبب كان أبعد مما تصورنا .. أو مما تصورت أنا .. لقد كان السبب مخجلا حقيقة .. يبدو أن أحدا من المسافرين قد أعطاه شيئا مخدرا في سيجارة أو في كوب شاي .. أو بلا سيجارة أو شاي .. قد جعلها لا تستجيب لإشارات الكابتن ومساعديه .. وهذا ولا شك نوع من التخريب ! ..

وتعددت وسائل الانتقال بين شواطئ البحر الأبيض المتوسط ذهابا وإيابا .. وعلى الرغم من أنه لا توجد الا طريقتان هما ، بالبحر وبالهواء .. فإن اختلاف السفن والطائرات يكاد يجعل السفر مختلفا تماما .. فالسفر على ظهر السفينة غير السفر في الدرجة الاولى .. والسفر في الدرجة السياحية في الطائرة غير السفر معززا مكرما في الدرجة الاولى ومجانا مثلا ! ..

ولكثرة السفر .. عشرات المرات ، لم أعد أهتم كثيرا بالدرجة ولا بالوسيلة ولا بالطعام ولا بالشراب ولا أين أضع رأسي ولا أين

أضع رجلى .. ولو وضعت رأسى ورجلى فى مكان واحد - كالجنيين
مثلا - فأننى لا أتردد فى السفر .. فهو المتعة الكبرى التى تساوى
كل ما يبذله الرأس والقدمان من تعب ! ..



ولا أعرف أين ومتى وكيف التقيت بأول وجه إيطالى .. فى مصر
أو خارجها .. فالإيطاليون موجودون فى كل مكان .. أو أستطيع
أن أقول بشكل آخر : أنه من الصعب ألا تسمع أذننى كلمة واحدة
إيطالية كل يوم ..

ففى المنصورة منذ أن كنت طفلا وأنا أسمع على الأقل كلمة واحدة
إيطالية يوميا .. فقد كان فى بيتنا أسرة إيطالية .. وفى نهاية الشارع
يقال إيطالى .. وفى الطريق الى المدرسة كنت أخوض طريقى بين
عدد من التلامذة يتكلمون الإيطالية ..

وفى سن مبكرة جدا اعتدت على اللغة الإيطالية .. وعلى لهجتها
وعلى طريقة النطق بها .. ولا أعرف لماذا اكتسبت لهجة إيطالية
يصفها الإيطاليون بأنها لهجة جنوبية .. ولم يحدث أن تحدثت الى
أحد من الإيطاليين حتى أبدى دهشته من لهجتى الجنوبية ..
لهجة نابلى وصقلية .. مع اننى لم أكن رأيت لا نابلى ولا صقلية
.. وهى لهجة أقرب ما تكون الى اللهجة الصعيدية عندنا .. وعلى
الرغم من اننى وجدت فى هذا رأى حفلة تكريم لمجهودى الخاص
فى تكوين لهجة صحيحة ، فأننى أحسست بشيء من الضيق ..
وهذا الطريق قد اضطررت فى كثير من الأحيان الى أن أجعل صوتى رفيعا
وأتلاعب به موسيقيا .. ولكن كان رأى الإيطاليين اننى لم
أغير لهجتى وإنما غيرت فقط من حجم الصوت .. برضه صعيدى
إيطالى ! ..

وأنا لا أحب الذى به يتكلم فيحرك يديه وملامح وجهه ، وإن
كنت قد وقعت ضحية لهذا التعبير بكل ملامح ومعالج الوجه
والجسم ، ولكن الإيطاليين ، وكل سكان البحر الأبيض لا يتكلمون
وإنما يرقصون ..

والإيطاليون يتكلمون بصوت مرتفع .. ويخيل اليك إذا لم تكن
تعرف اللغة الإيطالية أنهم يتشاجرون .. وأذكر انى كنت مسافرا

من روما الى فيينا في القطار .. ولم أجد مكانا . فظلت واقفا في
الممر .. وأخيرا عندما وصل بنا القطار الى ممر برنر وجدت مكانا
.. ودخلت وهزئت رأسي تحية للجالسين .. وتلمست طريقي بين
السيقان الممدودة .. وفي الركن جلست .. وارتفع صوت غليظ
واعتدلت لاعرف ما هي الحكاية .. ومضى الرجل يتكلم عالي الصوت
ولكن أحدا من النائمين لم يتحرك .. لا صحا ولا أستنكر .. وجاء
صوت ناعم يرد .. كانت زوجته .. ومضى الرجل بصوت مرتفع
.. أما هو فكان كالذي يجلس على كرسي في صالون حلاق .. يلف
ويدور ويتقدم ويتراجع وأحيانا ينهض كأن الشعر قد تسلل من
قفاه الى ظهره .. والذي يسمعه يوقن تماما انها خناقة .. مع انه
كان يروي قصة كيف سافر من القرية الى مدينة روما وهو صغير
.. وعلى قدر فهمي فأننى اعتقد ان هذا الرجل فحش - وكل
الاطاليين كذلك - لانه ينسب لنفسه مغامرات غير معقولة ..

وفجأة تعالت أصوات النائمين بالضحك .. وكانت أصواتهم
أعلى من صوته .. انهم جماعة من الصعايدة الايطاليين .. ولكن
حتى الذين ليسوا من صعيدا ايطاليا فانهم لا يختلفون عن هؤلاء
الا في درجة ارتفاع الصوت .. ولكن الطريقة واحدة ..

فالاطاليون فيهم حيوية وشباب وطفولة أيضا .. وهم يؤمنون
بتشفيل كل الحواس .. انهم أبناء هذه الدنيا .. هذه الارض ..
وهم يضحكون .. كأنهم مكلفون بالضحك بالنيابة عن كل شعوب
الشمال في أوربا ، فهم ينظرون الى كل شيء ويجدون شيئا يجعلهم
يضحكون .. أى شيء .. ومن النادر الا يجد الايطالى نكتة أو
قفشة في أى شيء ينظر اليه أو يفعله أو يتذكره أو يعلق عليه .. على
عكس سكان أوربا الشمالية .. ويبدو ان الايطاليين قد اقتسموا
الدنيا مع الاوربيين الآخرين : هم يضحكون وغيرهم يفكرون
ويحزنون ! ..

ولا يوجد ايطالى واحد لا يغنى .. ولا يرتفع صوته في أى وقت
وفي أى مكان بعبارة من عبارات الاوبرات المعروفة .. فعمال البناء
يرددون عبارات وجملا موسيقية من أوبرات : توسكا .. والشهامة
الريفية .. ولا ترفيناتا .. وغايدة .. وفزانشسكادا ريميني ..
وفي الليل وانت نائم تجد صوتا يجلجل في الشارع : انه أحد المارة
يغنى .. انه ليس مخمورا .. ولكن المخمور هو وحده الذى

يرفض أن يغنى لأنه يخشى أن يطلب إليه أحد أن يسكت لا لأنه مخمور
فلا عقوبة على الخمر ، ولكن بتهمة أن صوته قبيح .. وهذه تهمة
كبيرة .. كما نتهم أى مصرى بأنه لا يفهم النكتة .. أو دمه ثقيل
.. أو لا يحب الفول بالزيت أو الملوخية بالارانب !

والايطاليون خبراء فى الاكل وفى الحب .. فهم يأكلون كميات
كبيرة من الطعام .. لا بد من المكرونة والجبنه والنبيد والفاكهة
.. والفقر جدا هو الذى لا يجد النبيد .. والنبيد كثير ورخيص
.. والرجل الايطالى لا يشرب النبيد لأنه «شريب» ولكن لأنه يريد
أن يفرفش .. ويضحك أكثر .. وعلى الرغم من الكميات الكبيرة
من المكرونة التى يلتهمها الايطالى فان الاجسام الايطالية ممتلئة
قليلا .. وقد وجد الايطاليون فى ذلك مبررا لسلوك آخر ..
فالايطالى يطارد الفتيات فى الشوارع .. يطاردهن بلا تعب من
شارع الى اتوبيس الى شارع الى اتوبيس .. فاذا لم يفز بشيء فى
النهاية عاد يغنى .. ثم يستمر فى المطاردة .. واذا سألته عن
السبب قال لك : لا بد أن أمشى .. انها المكرونة .. فانا لا أريد
أن أكون بدينا .. ثم كيف لا أغنى ! ..

أى انه يطارد الفتيات لأنه يريد أن يمشى .. وهو يريد أن يمشى
لأنه يريد أن يفشل فى المطاردة ليغنى على خيبته بعد ذلك .

والحقيقة ان معاكسة الفتيات عادة لا يضيق بها الرجال ..
ولا تضيق بها الفتيات .. فقد اعتادت المرأة على المعاكسة واعتاد
الرجل .. وفى ايطاليا يطلقون على هذا النوع من الرجال انه ببغفان
- بباجالو - لأنه يغنى وراء الفتيات .. وان كان صوت الببغفان
قبيحا .. فالببغفان شتيمة فظيعة لاي رجل ايطالى !

ولكن الايطالى يتمتع بحياته .. ويعواطفه أيضا ..
والمرأة الايطالية تشجع على ذلك .. فهى واضحة المعالم ..
وبارزة الانوثة .. الصدر بارز .. والاردا ف ممتلئة .. والخصر
هزيل .. والعينان واسعتان .. والشفتان ممتلئتان .. الى آخر
هذه الملامح الرومانية التى أضافت لها الحرية العاطفية أن تستمع الى
معان أخرى كثيرة مشجعة للايطاليين ولغيرهم على أن يمدوا أيديهم
وشفاههم ويتدوقوا معانى الحياة .. كما يفعلون على شسواطىء
الانهار والبحيرات وبالقرب من البراكين وعلى أطراف الغابات ..

فهي حملت على صدرها براكين فيزوف واسترومبيلي .. وفي عينيها صفاء البحيرات وعلى رأسها أوراق وظلام الغابات .. وسيقانها وذراعها وبشرتها .. مستعارة من نعومة الفواكه والحريرو والبلاستيك والطرق المرصوفة ، والأغنية الإيطالية تقول : المسيني بيديك .. قطعيني بفمك .. واخنقيني بشعرك .. وأدفينيني في صدرك .. واتركيني اتمدد الى الابد ..

وهذه الاغنية ينفذها الايطاليون منذ وقت طويل ..

والافلام الإيطالية تلتفت الى هذه المعانى التى تهم المتفرج ..

فمنذ ظهر فيلم « مرارة الارز » بطولة سيلفانا مانيجانو .. وأصبح التعرى على الشاشة شعارا للواقعية الجديدة .. ففي هذا الفيلم سقطت سيلفانا فى الوحل .. وارتفعت من الوحل لتسقط فى كل مكان آخر .. والعيون تأكلها .. والفتيان يقلدونها والفتيات أيضا .. ونسى المتفرج ان الفيلم يصور مأساة عمال التراحيل فى إيطاليا .. ولكن المهم هو أن يرى اللحم الانسانى عاريا ليلتهمه ساخنا .. ولينسى المشكلة الانسانية بعد ذلك .. لان المشكلة الاساسية هى أن يحب ويأكل من يحب ..

وقد انطلقت كل الافلام الامريكية والفرنسية تعرى الفتيات وتغطيهن بالوحل .. ليجىء رجل يتظاهر بالشهامة ليفسل الوحل بالحب .. لان هذه هى القضية ! ..

وفى فيلم اسمه « الخائنة » بطولة جينا لولو بريجيذا أعلنت البطلة فى أول الفيلم : ان الجسم كنز الرجل الايطالى ومملكة المرأة الإيطالية .. والحياة عبارة عن معادلة بين الكنز والمملكة ! ..

وهذه عبارة صحيحة ..

والافلام الإيطالية - أو على الاصح الجمال الايطالى - هو الذى أطلق صدر جينالولو بريجيذا وقوام صوفيا لورين وكلوديا كاردينالى .. وساقى سيلفانا مانيجانو .. وشفتى اليانوره روسى دراجو .. والصوت المبحوح النائم لسيلفانا بمبائنى .. وأصابع قدمى سكافينو .. وغيرهن من صواريح الشاشة الإيطالية .. وليس النساء فقط .. وانما الرجال أيضا .. فالرجل الايطالى فيه رجولة ويكفى ان نذكر فيتوريو جاسمان .. وماستوريانى .. وغيرهما كثيرون ..

انه الجسم .. وسحر الجسم .. ذلك الكنز والمملكة الذى حول
الشاشة من تصوير الاعماق .. الى تصوير الفسلاف الخارجى
الجميل والاتجاه الى الاعماق .. فكل الاعماق تبدأ من قشرة
التفاحة وبشرة المرأة ..

واذا كانت المرأة الايطالية فى الشمال شقراء ناعمة ، فان المرأة
فى الجنوب سمراء وأكثر نعومة .. واذا كانت المرأة الايطالية فى
الشمال اوروبية ايطالية ، فانهما فى الجنوب ايطالية فقط
غنائية انثى .. محافظة .. والرجل هو السيد .. هو السيد
للرجل والمرأة أيضا .. ومن المناظر الغريبة ان نجد الصغير يقبل
يدى الكبير .. أو نجد الجندى يقبل يدى الضابط .. أو يدى
العمدة .. كما يحدث فى الريف عندنا وفى أسبانيا ..

ولكن الشعر الغنائى والرقه كلها فى الجنوب .. فأجمل الاصوات
وأحسن مؤلفى الاغانى يعيشون فى الجنوب .. ففى نابلى توجد
أرق الاغانى الايطالية وأكثرها أسى وعدوبة .. وفى صقلية توجد أروع
أغانى الفلكلور .. وأعمق قصص الحب كلها فى الجنوب .. بل
وأعظم أدباء ايطاليا من الجنوب .. من مثل : الاديب بيراندللو من
صقلية .. والفيلسوف كروتشه من نابلى - صوفيا لورين أيضا -
وكذلك فيرجا وبورجيزه وفورتيناتو وسالفاميني وبرنكاثي ..
وغيرهم كثيرون ..

والفارق كبير بين أهل الشمال وأهل الجنوب ..

ومن العجيب أن احدى الصحف قد نشرت مرة هذا الاعلان :
الاشيء يضيع عندنا .. فاذا انكسرت العلب بعثنا بها الى الجنوب
.. واذا تحطمت الزجاجات صذرناها الى الجنوب .. واذا اختلف
موظف مع رئيسه نقله الى فرع الشركة فى الجنوب .. اننا نجد
لكل سلعة من يشتريها فى الشمال ، فاذا رفضها الشمال اتجهنا بها
الى الجنوب ! ..

فايطاليا دولتان وشعبان : اتاس فى الشمال .. وفقراء فى
الجنوب ! ..

ولكنهم فقراء ظرفاء .. وأجمل ما فى هؤلاء الفقراء نساؤهم
وحناجرهم ؟ ..

اذكر اننى اقامت فى مدينة بالرمو بجزيرة صقلية بعض الوقت ..
وفى أحد الايام ذهبت الى مطعم صغير يشرف على ميناء بالرمو ، وخطر

لى ان ارتدى الملابس الوطنية .. البنطلون الضيق .. المفتوح تحت
الركبة .. والقميص المفتوح عند الصدر .. والبرنيطة الكبيرة المصنوعة
من سعف النخيل .. وعلقت سلسلة فى عنقى .. والسلسلة مكتوب
عليها اسم فتاة .. لا أعرف من هى الفتاة .. ولكن السلاسل تباع
فى الشارع جاهزة : باسم الفتاة وعنوان وهمى واسم أغنية معروفة
فى ذلك الوقت .. ومررت أمام الفندق واشترت سلة من التفاح
الجميل .. ورأيت سيدة عجوزا تبيع النبيد .. ومددت يدي
واشترت وصادفنى طفل غلبان يبيع الكعك والجبنه .. فاشترت
.. وقابلتنى سيدة فيها شبه كبير جدا منى اذا بلغت الثمانين فيما
عدا ان لها شاربا خفيفا وكانت تبيع الورود .. ومددت واخذت ..
وشكرتها .. وشكرتنى ..

والصورة التى أمامك الآن : هى صورة لسائح يشبه السياح
الخوارجات الذين يجيئون الى مصر ويرتدون الطربوش ويجعلون الزر
الى الامام .. ويمسكون الطبله ويشتررون الشباشب الزنوبه
ويعلقونها فى رقابهم .. ثم يلفون منديلا حول العنق وشالا حول
الخصر .. ويستعدون لاي تقر على اية طبله ليرقصوا ويهزوا بطونهم
.. ثم يضعوا فى جيوبهم سندوتشات الفول .. اى أنهم يحاولون أن
يكونوا قريبى الشبه جدا لصفات المصريين التى جاءت فى الكتب
السياحية فى أوروبا وأمريكا .. ودخلت أحد المطاعم ونهض صاحب
المطعم وقال : بون جورنو .. وزددت عليه .. وقال لى اتفضل ..
وساعدنى على نقل مامعى ووضعته على كرسى آخر .. وساعدنى على
وضع الورد فى اناء جميل .. ووضع الورد امامى .. وجاءت
زوجته بمفرش رائع ووضعته على المنضدة .. وجاءت ابنته ..
وأخذت النبيد والكعك .. وجاءت ابنته الصغيرة وراحت
تمشط شعرى .. وتختار لى وردة وتضعها حول أذنى .. وجاء
شاب ظريف وسيم .. ومد يده الى السلسلة التى فى عنقى ..
ورأى اسم الاغنية .. وقال سعيدا : ان ذوقنا واحد ..

ومن المؤكد اننى كنت سعيدا .. ولكن لا أعرف مناسبة لذلك كله
.. لقد كنت سعيدا والسلام .. والسبب والمناسبة ولماذا كل هذا
.. لا يهم ابدا .. واعتقد ان هذا الموقف السعيد قد أثر فى نفسى زمنا
طويلا .. فقد قررت بلا وعى منى أن أكون سعيدا والسلام ..
وأجمل ما فى هذا القرار أنه قرار جسمى .. أى أن جسمى هو الذى
اتخذه مستقلا عن عقلى .. وهذه نعمة من نعم الله .. أن يكون
للجسم قرار واحكام لا يستأنفها العقل !

والتف هؤلاء الناس حولي . . وجاءوا بمقاعدهم . . وكل واحد جاء بطعامه وشرابه . . وجعلنا نأكل ونضحك . . ويتبادل الرجل وأولاده الرقص . . والفناء . . ونشترك معا في هذه الهیصة . . ومن حين الى آخر انظر الى الوجوه ابحت عن مجنون . . لابد ان يكون هناك واحد مجنون - يغنى ويرقص ويضحك ويأكل ويشرب دون سبب واضح . . لم أجِد أحدا مجنونا . فالضحك صادق . . والسعاد مؤكدة . .

ولابد أن يسألنى أحد : ماذا حدث بعد ذلك ؟

لم يحدث أى شىء بعد ذلك . .

فقد كنت أول زائر لهذا المطعم في أحد الاعياد المقدسة . . وقد تفاعل الناس بزيارتي . . وغمرونى بالركة والكرم والمقبلات على الوجه وعلى الاكتاف . . وعلى اليدين . . والشىء الذى ضايقنى عندما عدت الى الفندق هو كيف اننى لم أرد على هذه القبلات بأحسن منها . . وكيف اننى كنت متفرجا ولم أكن ممثلا مندمجا في الدور . . أو حتى متفرجا متحمسا . . والمصيبة اننى لم أكن أعرف المناسبة . . وانما هى مجرد الصدفة . . فقد تصادف اننى قررت أن أكون ايطاليا في نفس اليوم الذى تحتفل فيه الجزيرة بعيد أحد القديسين . . وما أكثر القديسين في ايطاليا !

ومثل هذا المشهد في الجنوب لا يمكن أن نجده في الشمال بهذه البساطة والنقاء والحرارة .

ولا يمكن أن يحس الانسان الا نادرا في حياته أنه يخفى تحت جلده أجمل ما في الدنيا : رائحة الزهور وحرارة الشمس ونشوة السعادة وبراءة الطفل وأبدية اللحظة التى يعيشها !

والرجل الايطالى الذى يرقص ويغنى هو نفسه الذى يقتل ويسرق وينهب . . وهو أيضا الذى يذهب الى الكنيسة ويصلى . . بنفس الحماس والحرارة والصدق !

وايطاليا هى بلد : ماركونى مخترع الراديو . . وبلد آل كابونى المجرم الانيق . . وبلد كازانوفا العاشق الولهان . . وبلد الفاتيكان . . ومهرجانات السينما ومهرجانات الاغانى . . وسباق السيارات . . ومعرض « البينالى » في البندقية . .

وايطاليا تشعل من الشموع في كنائسها اضعاف ماتفعله أية دولة

أوربيسة .. لكثرة الكنائس والقديسين .. ولكثرة المترددين على بيوت العبادة .. !

ومن الحوادث المشهورة أنه في سنة ١٩٥٣ هزم حزب دي جاسبري في الانتخابات . وبعد الهزيمة سالت الدموع من أحد التماثيل في مدينة سيراكوزة في صقلية .. واتجهت الطائرات والسيارات والقطارات والسفن الى حيث يبكى القديس - ملايين الناس وملايين الصور .. وأقيمت المطاعم والفنادق .. وطبعت ملايين الصور والتماثيل وطوابع البريد من أجل دموع القديس .. وبعد ذلك بشهور سالت دموع أخرى لقديسين آخرين في مدن مختلفة .. وتحولت السيارات والطائرات والبركات الى حيث الدموع الطاهرة اللامعة في ضوء مالا نهاية له من الشموع !

وعلى الرغم من هذا التدين الشديد فإن الإيطاليين أيضا ليسوا متمسكين بالدين .. ففي إيطاليا اتجاهات دينية قوية : فيها الفاتيكان .. وفيها اتجاهات متحررة عامة : فيها أكبر حزب شيوعي في أوروبا .. وفيها جمعيات أدبية متحررة .. وفيها هيئات فوضوية .. وفي إيطاليا أدباء يهاجمون الكاثوليكية بعنف وسخرية ..

وقد ضحكت إيطاليا كلها مع فيلم « دون كاميللو » الذي قام ببطولته الممثل الفرنسي فرناندل .. والفيلم من تأليف الكاتب الإيطالي جوارسكي الذي دخل السجن بسبب بعض العبارات النابية وبسبب هجومه على الكنيسة .. ولكن إيطاليا لم تمنع هذا الفيلم الذي يسخر من نصف المتفرجين عليه .. أي من القساوسة !

ولم يكتف المؤلف جوارسكي بهذا الفيلم فقد ظهر له فيلم آخر اسمه « عودة دون كاميللو » ..

وظهر فيلم ثالث اسمه « بينو وفيولينا » .. أما بينو فهو اسم طفل من مخلفات الحرب العالمية الثانية .. وفيولينا هو اسم « الحمامة » التي اشترتها القرية لهذا الطفل .. وقصة الفيلم الذي شاهدناه هنا في القاهرة أن الحمامة مريضة .. والطفل يريد أن يدخل بها الكنيسة لتزور معه قبر القديس فرانشيسكو .. وهو الرجل الذي أحب الطيور والحيوانات وكان يمشي حافي القدمين .. وهو الذي تنسب اليه جماعة الفرانشيسكان الذين يحلقون شعورهم ويمشون حفاة .. أو يرتدون الصنادل التي تعري القدمين كما كان يفعل القديس فرانشيسكو . ورغب الطفل أن يدخل الكنيسة بحمارته .

وأمام رغبة الطفل رفض قساوسة القرية مع أن كنيسة القديس
فرانشيسكو قد رسمت عليها صور للطيور والحيوانات . .
ويلجأ الطفل الى البابا . . ويناقش البابا والكرادلة في هذا المطلب
الغريب للطفل . . ويرون أنه لا مانع من دخوله هو وحمارته الى
الكنيسة . ويدخل الطفل مع حمارته . . وتتعرض قدم الحمار
في كنز في داخل الكنيسة . . وهذه النهاية للفيلم هي التي
تجعل المعنى الاخلاقي واضحاً : وهو ان الكنوز تفتتح للمتواضعين
والمؤمنين البسطاء . . ايمان الاطفال ! . .

ثم هجوم سينمائي على هذا الفيلم . . ومناقشة فيها كثير من
الاستخفاف للقصص الدينية . .

وكل هذه المتناقضات الحيوية الحارة موجودة في ايطاليا وفي
الشعب الايطالي . .





طلياني بين الصعادية !

أولاد شوارع .. بكل معنى الكلمة في كل اللغات ..
فبلادهم الحارة الممتدة من الجنوب الدافئ الى الشمال
الجليدي .. جعلتهم يعيشون بالساعات في القطارات
والسيارات .. وفي الشوارع المرصوفة الناعمة .. وجعلتهم
أصحاب أكبر عدد من المقاهي والمطاعم الصغيرة والمتوسطة والكبيرة
والضخمة في أوروبا كلها ..

وكلمة « شارع » تتردد كثيرا في أسماء القصص والافلام لان
الشارع ملتقى حيوى لكل الناس ..

والشارع تتغير معاملة في كل ساعات الليل والنهار ..

ففي الصباح المبكر تجد الشارع عبارة عن ميدان لاطلاق النار
والدخان .. فالسيارات كثيرة وسريعة ومدوية .. وكذلك
الفسبأ الصاخبة ..

وبعد ساعة تمتلئ الارصفة بالمشاة السريعين .. كل واحدة
وواحد الى عمله ويقفون بالعشرات أمام محطات الاتوبيس ..

وبعد ساعة اخرى يجيء دور الارصفة .. وعلى الارصفة تجتمع
المقاعد الملونة والمفارش النظيفة .. واكواب الماء .. والشاي والقهوة
.. ويجلس الناس على المقاهي ويخلقون بعضهم لبعض ..

وعند الظهر تتحول الشوارع الى سوق ومهرجان وترسالة
للسيارات والاتوبيسات والناس والسياح والضوضاء .. والصراخ
والاصطدام والمعاكسات ..

أما عند الغروب فالشارع والارصفة مهرجان .. وعرض للازياء
والجمال الايطالى .. لا أول له ولا آخر .. ودوخة مؤكدة اذا قررت
- بسبب قلة العقل والجشع - ان تتابع كل الفساتين وكل الاحذية
وكل الاذرع والسيقان والصدور والشفاه وتحاول أن تترك أثرا أو
تتلقى أثرا .. أو تطلق إشارة أو تتوقع إشارة .. وأحسن نصيحة

لك هي أن تفعل بالضبط مايفعله رواد الفضاء أن تسلتقى على ظهرك وتترك نفسك في حاله انعدام الوزن .. وتعود الى الفندق بعد ذلك تبتلع ما تستطيع من الحبوب المنومة .. وإذا كنت سعيدا رأيت شيئا ما في أحلامك يعوضك عن الحرمان بكل ألوانه الطبيعية ! .

وفي ساعة متأخرة من الليل .. يصبح الشارع اسود لامعا مفسولا باردا .. ويقذف اليك الهواء بالموسيقى والروائح الغريبة من كل جانب .. وينتهي بك الشارع عادة الى نافورة .. لا يوجد شارع لا يصل الى نافورة .. وهذه النافورة هي دش رقيق جميل لتخفيف حرارة الجو .. أو حرارة الجوف .. وأنت حر بعد ذلك أن تدبر ظهرك للنافورة وتتفرج على جمال الليل .. الذي يلقي ضيائه الحاملة الرقيقة على الوجوه الجميلة .. أو على حركة الجمال الرقيق في الشارع من رصيف الى رصيف .. أو من الرصيف فجأة الى سيارة ذات فرامل صارخة .. وما أكثر السيارات التي تتوقف فجأة وتلتقط بنات الشوارع .. وبعد لحظات تنفتح السيارة وتلقى بنات الشوارع الى الشوارع ..

وأنت مائزال حرا في أن تجعل ماء النافورة ينزل على وجهك وتتركه يتسلل الى ملابسك .. فللماء في هذه الساعات من الليل فعل السحر عندما يصيبك الياس ..

وهذا الليل في ايطاليا هو ابو المساكين والمحرومين والمفكرين .. ولانه أب للجميع فهو قادر على أن يجمع بينهم على رصيف واحد وعند تقاطع شارعين .. وفي الميادين وعلى المقاهى .. وفي الأركان المظلمة وفي مداخل البيوت .. وفي المصاعد التي تقف في الظلام عند الطابق الأخير وتنفتح الابواب دقائق .. ثم يعود الهاربون فيها الى الشارع مرة أخرى ..

وبعد منتصف الليل .. تتعالى أصوات العائدين الى بيوتهم .. ويدور بينهم وبين رجال البوليس أحاديث وابتسامات وغمزات ولمزات .. يقول عسكري البوليس :

— الى أين ؟

— وأنت الى أين ؟

— عندي موعد غرامى .

— يابختك ..

— سمعت هذه العبارة من أمى ومن أحد اللصوص ..

— لقد كانت امك على حق ..
— وانت ما الذى تعرفه عن امى ؟
— ان واحدة تأتى الى الدنيا برجل ظريف مثلك تستحق التكريم ..
— أشكرك ..

— ولكن الام التى تأتى بواحد مثلك يجب أن تندم مدى حياتها
الثانية بعد الموت !
— وكيف ذلك ؟ .

— انت تجمع بين ماتقوله امك وبين مايقوله لص .. دون ان تفرق
بين المجرم وبين التى أوجرمت انت فى حقها ..
— ومن الذى قال اننى اتحدث عن اللصوص ..
— أنت الآن ..

— آه .. انت فهمت ان هذه الكلمة معناها لص .. ان معناها
السيدة المحترمة .. فهذه الكلمة عامية عندنا فى الجنوب .. فكيف
لا تعرف ذلك وانت من الجنوب أيضا !

و كنت قد نسيت اننى من الجنوب .. ففى الليل يصبح أهل
الجنوب مثل أهل الشمال .. مجرد اشباح جائعة تروح وتجىء ..
اذكر اننى عندما قرأت قصة « فتاة روما » لصديقى الاديب
الايطالى البرتو مورافيا .. هزتنى هذه القصة .. وطلبت منه أن
يرينى هذه الفتاة التى استوحى منها القصة .. أو أية فتاة
شبيهة بها ..

وضحك الاديب الايطالى ..

وضحكت أنا أيضا لسداجتى المفاجئة .. فأنا أيضا اكتب مثله
.. وأتخيل .. وليس من الضروري أن تكون للصور التى أرسمها أى
وجود فى الواقع .. بل ان الادب الواقعى ليس هو الادب الذى ينقل
الواقع نقل مسطرة .. ولكنه الادب الذى ينقل الواقع كما نراه نحن
وكما نتخيله نحن .. ونحذف منه ونضيف اليه مايعجبنا ..

ولكن على الرغم من ذلك كنت أقف فى ميدان ايسديرا القريب من
محطة روما : . . واقول كانت المسكينة ادريانا بطلة قصة « فتاة روما »
تقف هنا .. وعندك شك بيع الصحف .. وكانت تتوارى من البوليس
.. مسكينة كانت جميلة .. رقيقة فقيرة .. ولم يكن عندها ماتبيعه

غير هذا الجسم .. وعندما قررت أن تعطي جسمها للشخص الذى تحبه كانت النهاية .. نهايتها ونهايته ..

وقبل الفجر بساعة يجمع الليل بقاياها من كل شيء .. الناس يختفون فى بيوتهم .. وتختفى النساء تماما .. ويتأهب رجال البوليس الى العودة الى بيوتهم .. وتظهر عربات اللبن وعربات الخبز واللحوم والفاكهة .. ويظهر الكناسون بالمئات .. ويدفعون أمامهم أكداسا من مخلفات معركة الامس .. وهى معركة كل يوم .. العلب والزجاجات الفارغة وأوراق الصحف والفواكه ويفسلون الارض .. أو يفسلون الارض التى تلمع كأنها سقف أو كأنها جدران .. أو كأنها أطباق تاكل عليها مدينة روما .. تأكل أهلها من الرجال والنساء .. كل يوم تأكلهم وتمضغهم وتسحقهم وتهضمهم ثم تلدهم من جديد .. ويدوب الناس .. وتبقى الشوارع حية حارة .. شديدة النهم .. تأكل ولا تشبع ، تشرب ولا ترتوى .. تنفضح وتستتر .. ولكنها تستتر أكثر وأكثر ..

ولكن هناك دائما مجتمع متجدد كل شيء فيه موجود .. جاهز .. الحب جاهز .. العشيق جاهز .. والشحجار جاهز .. الموسيقى هى الهواء والغناء هو الماء .. والرقص هو المد والجزر .. والمرأة هى القمر الذى يرفع الماء ويتركه يهبط من التعب .. كل ليلة .. على كل شارع .. على كل رصيف .. فى كل ساعة ..

فى أحد الايام كنت فى مدينة بيروجه .. واخترت مقهى فى ميدان الكاندرائية .. المقهى واسع عريض .. أثيق جميل .. فخم .. وأخذت مكانا قريبا من نهاية المقهى .. قريبا من السور الحديدى الذى يضعونه حتى لا يهرب الزبائن .. أو حتى لا يهرب الى الزبائن أناس من الشارع .. واخترت هذا المكان لكى تكون الموسيقى بعيدة بعض الشيء .. فأسمعها اذا أردت وأتجاهلها اذا أردت .. على عكس الذين يجلسون الى الداخل فيشعرون أن الموسيقى مقررة عليهم .. وأنهم كأفراد الاوركسترا .. ولكنى قررت أن أكون متفرجا ومستمعا .. واخترت المكان بالقرب من الباب أيضا ..

ولما سألنى الجرسون : سيدى ؟

قلت : آيس كريم بالصودا وبعض البسكوت .

قال : حالا ..

ولما لاحظت أنه يسألنى ويرد على بصورة آلية .. تضايقت .. فهو لا يعرف أن المال الذى معى قليل .. وائنى قررت أن أجلس هنا وأن أستمتع لأقصى درجة .. ومهما كان المبلغ الذى أدفعه تافها ، والبقيش الذى سيتقاضاه أتفه ، فإن هذا المبلغ كبير بالنسبة لأموالى .. وأنه ليس من حقه أبدا أن يقف الى جوارى ولا يرانى .. وأن يستمع الى دون أن يتفضل مشكورا فينظر الى ذقنى التى حلقتها بعناية .. وملابسى النظيفة الانيقة والتى تدل على أننى أجنبى على درجة من الثراء .. أئى اننى قادر على أن أعطيه بقشيشا أكبر .. ولكن ما هو هذا البقيش الذى سوف أدفعه .. أنه لا يزيد على عشرة قروش .. ولتكن عشرة قروش فما الذى أريده أن يفعل بهذه العشرة أو هذه العشرين ؟ أريده أن يعبرنى أن يحترمنى .. فقلت له : لا أريد شيكولاته ..

.. حاضر .

— وان تكون الصودا من ماركة سان بلجرينو ..

— هى الوحيدة التى عندنا ..

— أما البسكويت فهو الذى أريده بالشيكولاته ..

— هو الوحيد الذى عندنا ..

— وهل من الممكن أن أدعو هذه الفتاة لتجلس معى هنا .

— ممنوع .

— انها طفلة صغيرة متسولة ..

— لأنها كذلك يا سيدى .

— فاذا اصررت .

— أنا متأسف .. ممنوع .

— ولكنى مصر على أدعو الى مائدتى المتواضعة مواطنة ايطالية

— مواطنة ايطالية ؟ !

وتركنى .. واتجه الى داخل المقهى ..

ولا أعرف لماذا خطرت لى فكرة استدعاء هذه الفتاة الصغيرة التى وقفت أمامى ومدت يدها عبر السور تبيع الصصور الدينية وتمائيل لطيور وحيوانات .. وربما كان السبب الحقيقى هو أننى لا أريد أن أكون مجرد « كتلة » تشغل أحد المقاعد .. فالجرسون لا يرى الا كتلة من اللحم والشحم على أى مقعد ..

ثم يسألها دون أن ينظر إليها .. ثم يختفى ويعود بالطلبات ..
فهو عمل آلي .. وهو آلة .. والزبون شيء .. أى شيء ..
وتضايقت من أن أظل « شيئاً » مدة طويلة ..

فأنا شيء فى كل مكان أذهب إليه .. لا الفت النظر ولا الأذن ..
ولا العقل .. يرانى صاحب البنسيون فيخفى رأسه فى الورق
يبحث لى عن جواب أو عن رسالة أو يعطينى مفتاح الغرفة ..
وبحركة آليسة يقول : صباح الخير .. أو أصبح على خير .. أو
يقول تعليقا مضحكا .. وعندما يطلبنى التليفون فإنه لا ينطق
اسمى وإنما يقول : نمرة ٢٠ هنا .. أو ليس هنا .. أو يقول :
آه الفيلسوف هنا .. آه لقد خرج فى الصباح فيلسوفنا ولا أعرف
كيف عاد الآن .. لعله شاعر الآن .. أو يقول : آه .. كتب أخرى
.. لا أعرف هل ما يزال صاحبنا يأكل الكتب .. أو يبيعها ..
آه .. من نمرة عشرين آه ..

ولذلك قررت ألا أكون شيئاً فى هذا المقهى .. وأن يدور بينى
وبين الجرسون كلام .. وأن أثير قضية .. وأن تكون هذه
القضية مخجلة لأحد منا نحن الاثنين .. فلا يزال الخجل أحد
ينابيع الوجود الأخلاقى .. والاجتماعى .. وهذا الموقف
اجتماعى وأخلاقى .

وعاد الجرسون ومعه مدير المحل .. وفى عيني المدير رجاء
بالأفعل ذلك .. وأنه مستعد أن يقدم لهذه الفتاة أى طعام على
حساب المحل ..

ولم أكن أريد أن أدخل فى مناقشة .. وإنما فقط أن ينظر لى
أحد فى عيني .. وأن ينتظر ما أقول .. ولذلك لم أتمسك
بموقفى ..

ومددت يدي خلال السور الحديدى أعطيها شيئاً ..

وقبل أن تمتد يد الفتاة قال لى مدير المحل : اشتر منها أى
شيء .. فهى بائعة صغيرة جميلة .. ويجب أن تكون بائعة ..
وأذا تعلمت وكبرت فأنا أعدها بأن أجعلها تبيع الزهور هنا فى
داخل المطعم ..

ولم تصدق الفتاة ما سمعت ..

وامتدت بدى تشتري وتدفع أكثر .. وامتدت يد المدير ..

وشكرنى المدير .. واعتذر الجرسون .. واستعجلت الأيس كريم
فانى أستحق التكريم .. وكرمت نفسى .. وانتقمت من الايطاليين
الذين جعلونى « شيئا » سياحيا متواضعا !

ولكنى قبلت أن أكون شيئا وأقل من شيء عندما ذهبت الى
جزيرة كابرى وفاتنى الباخرة العائدة من كابرى الى نابلى ..
ولم يكن معى جواز السفر .. فقد تركته فى الفندق فى نابلى ..
ومعنى ذلك اننى لا أستطيع أن أبيت فى أى فندق .. ولا فى أى
بنسيون .. ولا أستطيع أن أتمشى فى الشوارع حتى الصباح ..
فكابرى ليست بها شوارع .. فالشوارع قصيرة جدا .. أو هى
طرق تعلو وتهبط بعنف .. ولا أستطيع أن أركب حنطورا يطلع
وينزل طول الليل .. ربما كان هذا ممكنا فى فرنسا .. أو فى
اليابان أو فى هونج كونج .. ولكنه ليس ممكنا فى كابرى .. ولم
أعرف كيف أتصرف بسرعة .. ولكنى قررت أن أتخلص من
الموقف الصعب .. فعند الثانية عشرة مساء بدأت المطاعم تقفل
أبوابها .. ولكن الكباريهات ما تزال مفتوحة .. وبعد الكباريه
ما الذى أستطيع أن أفعله حتى الصباح .. أو حتى الحادية عشرة
عندما تعود أول باخرة الى نابلى .. أنها ساعات طويلة جدا على
الذى لم ينم منذ يومين ..

وبعد سهرة سخيفة جدا فى كباريه من الدرجة الثالثة خرجت
الى الشارع .. الجو بارد .. الريح شديدة .. الموج مرتفع ..
وليس فى الامكان أن أتحدث الى أى أحد .. وأحاول أن أكون
ظريفا .. وقد أنجح فى المحاولة .. ولكن لا يمكن أن يكون أى
أحد ظريفا معى ومتسامحا لدرجة أن يقول : ياه .. بس كده ..
يا راجل اعتبر البيت بيتك .. أنا سأترك لك سريرى وأنام فى
المطبخ .. خد راحتك !

أو يقول : آد .. طيب ممكن تنام فى الصالون ..

أو يقول : أعطيك مقعدا وتجلس عليه أمام الدكان .. وقبل
أن تشرق الشمس يكون الشئى والسندوتش تحت قدميك !

أو يقول : ألا تزعم أنك قرأت كثيرا فى كتب الشطرنج .. مارايك فى
أن نلعب دورا حتى الصباح !

أو يقول : ضع يدك فى جيبى وأنا أصرخ .. وأقول : حرامى ..
واذا لم أجد أحدا يمسكك .. فأنا أمسكك وأتركك فى القسم حتى

الصباح .. وفى الصباح اعتذر لك عما حدث وأقول اننى كنت
مخمورا !

وطردت هذه الاوهام .. وبشعور غريب دفعت الباب ..
وانفتح الباب .. ولم أر أحدا .. وفتحت عينى جيدا .. ولم أر
أحد .. وقلت للظلام الذى انتجبر فى وجهى من داخل الباب
الصغير : مساء الخير ..

وسمعت صوتا يرد التحية .. وفاض النور .. وظهرت مقشة
كهربية .. وعلى المقشة انحنت سيدة عجوز ..

— هه .. وانت كمان عاوز ايه ؟ !

— نسيت جواز السفر .. وأريد ..

— أدخل .. واقفل الباب وراءك ..

ودخلت وأقفلت الباب ورأى .. واغرقنى النور .. أكثر ..
وانفتح باب .. ووراء الباب وجدت شابا اعتقد انه هندي ..
قد نام على الارض بعد أن خلع معظم ملابسه ..

وقالت العجوز : تنام هنا ؟

قلت : لا .. أساعدك ..

وضحكت وهى سعيدة : أنت ولد طيب !

وكانت هى أطيّب منى عندما قدمت لى كويا من القهوة السادة
.. ثم كويا آخر .. وأثناء وقوفى فى المطبخ وراء طاير طويل من
الاطباق وأكوام من السكاكين والملاعق والشوك .. وحنفيات الماء
تغلى من ورأى .. وبعد ساعة جاءت العجوز تقول : نصيحة
يا ولدى !

وتوقفت لأستمع شيئا جادا .

فقلت : اذا قلت لسيدة شيئا فلا تتراجع عنه .. وكل كلمة
تقولها للمرأة هى حق مكتسب لها .. فالمرأة قد سمعت كلاما
كثيرا ولم تجد الا أفعالا قليلة جدا .. لذلك فهى لا تكاد تسمع
الكلمة حتى تتعلق بها كأنها آخر طوق نجاة فى الدنيا ..

ومسحت عينى انتظارا لتوضيح أكثر .

فقلت وهى ضاحكة : انت الآن طبعاً نادم على انك أعلنت عن
رغبتك فى مساعدتى هنا .. اذهب الى هذه الغرفة وحاول أن تنام

ثلاث ساعات .. سأوقظك في الساعة ..

وتركتني نائما حتى التاسعة ..

وعندما صحت من نومي لم أجد أحدا في البيت ولا حتى الشاب الهندي ..

وبحثت عن بعض ملابسى فوجدت العجوز قد غسلتها وعلقتها على حبل أمام البيت .. منادى وجواربى وقميصى ..

ما اسمها ؟ من هى ؟ أين هى ؟ لا أعرف الآن .. ولم أعرف حتى في ذلك الوقت .. انها ايطالية طيبة .. انها أم طيبة .. بل انها الطيبة كلها !

وكان لابد أن أنتظرها حتى تعود .. لكى أشكرها بكل ما تجدد في جسمى ونفسى من حيوية !

وجاءت السيدة وكأنها لا تريد أن تعلق على ما حدث أو على وجودى . وانما قالت كائننى أحد نزلاء بيتها ومطعمها الصغير : نمت جيدا ؟

قلت : شكرا لك !

وضحكت : سوف تنسى ..

وقلت : أنا سوف أنسى .. وأنت ليس عندك ما تذكرينه ؟

قالت : هذا ..

أى هذا الذى صنعته لى .. أو هذا الشخص الذى هو أنا ..

وعادت تقول : انك لم تكلفنى شيئا .. أنا أعيش وحدى .. والبيت خال .. والسرير خال .. ومنذ مات ابنى فى حرب الحبشة وأنا قد اتخذت هذا القرار .. وهو ألا أقفل بابى فى وجه أحد .. وهذا هو السبب فى أننى جعلت اسم المحل : الباب مفتوح دائما .. والناس هنا يضحكون ويقولون : أن الباب مفتوح دائما .. وأنا غير موجودة دائما .. لأننى أذهب إلى السوق وأشتري كل شئ لنفسى .. ولذلك أترك المحل معظم الوقت .. ولم يختلف من بيتى عود كبريت واحد .. منذ عشرين عاما !

واتجهت العجوز الى صندوق فى الحائط وفتحته وأعطتنى طاقيئة من الحرير وقالت لى : على بركة الله يا ابنى .. ضعها على رأسك .. الله يحميك .. ويرحم روحه فى السماء !



ولا أعرف كم من المرات ذهبت فيها الى إيطاليا .. ربما
عشرين .. ربما ثلاثين مرة .. فهي في الطريق الذهاب الى دول
الشمال .. وفي طريق العودة أيضا ..

ولكن هذه الزيارات المتكررة لم تجعل طعم إيطاليا كالخبز ..
ولا مذاقها كالماء .. انها دائما جديدة .. انها بلاد سياحية ..
اعتادت أن تكون عروسا لكل سائح .. سواء أقام ليلة .. فهي
عروس ليلة .. أو أقام شهرا .. فهي عروس شهر .. والدولة
الإيطالية تعلم انها تكسب الملايين من حفلات الزفاف الدائمة لكل
سائح أوروبي أو أمريكي أو أفريقي أو آسيوي .. ولذلك فهذه
العروس قد اتخذت أسلوب شهرزاد فهي تحكى كل ليلة قصة ..
ملايين القصص لمليون شهريار ..

وأفلحت شهرزاد الإيطالية أن تؤكد لشهريار الاجنبي انه
الوحيد الذي في قلبها وعلى ذراعها وعلى صدرها .. وانه فتى
احلامها وكنز مستقبلها .. وانه أيضا فريسة شباكها وضحية
غرامها .. وانه تفاحة وانه بذرة في تفاحة وانه قشرة تفاحة ..
وانه في صناديق الزبالة بعد ذلك .. وكلما اغتسلت صناديق
الزبالة .. وامتلات الصناديق بالتفاح .. ووقفت السفن والطائرات
تلقى ما في بطونها من السياح .. أقيمت الشوارع .. نصبت
كانها مسارح فخمة .. وانتظرت الوافدين الجدد .. بالقصص
الجديدة .. بمليون .. بعشرين مليون شهرزاد .. هن اخوات
وبنات خالات : صوفيا لورين وكلوديا كاردينالي ..





انها معادلة صعبة :

ان يعيشوا على مصائب

الانسانية .. دون ان تصيبهم !

آکثر هنے سولیسے!



يعنى ايه : خوف؟!

أول مرة المس فيها الارض السويسرية والجبال السويسرية واللحم والدم السويسرى عندما ذهبت الى محل البن البرازيلى فى القاهرة ورأيت .. رأيت ذلك الرجل الطويل العريض الذى يمشى على الارض ويدب .. ويحاول أن يؤكد لأحد من الناس أن الاسفلت يمكن أن تفوص فيه الاقدام .. وعلى الرغم من أن قدمه لم تترك أى أثر على أسفلات الشوارع سليمان باشا .. فان هذا الرجل لم يياس .. انه يحاول .. انه يمشى بسرعة ويدب .. ويلتفت بحدة وهو يشبه عقرب الثوانى وسط أناس يشبهون عقارب الدقائق وأحيانا عقارب الساعات والسنوات .. ولكنه ينفذ مخططا فى رأسه .. هذا المخطط جعله سليم الجسم .. متين البنيان .. فى الثمانين ويبدو كأنه فى الأربعين .. انها صحة .. انها سويسرا ..

وفى البن البرازيلى عندما رأته فرحت .. وبلا تفكير مددت يدي أصافحه .. وبلا تفكير فرحت .. فقد رأيت هذا الرجل أنه الدكتور ران الذى كان يدرس لى اللغة الألمانية فى الجامعة وظلت يدي ممدودة .. وهو يسألنى : من أنت ؟

وظلت يدي ممدودة .. فالرجل يرفض أن يسلم على شخص لا يعرفه .. ووضح من ابتسامتى التى تقلصت .. انها كانت ابتسامة تلميذ لأستاذه .. فتحولت الى ابتسامة تلميذ لم يعد تلميذا .. ثم تحولت الى غضب مهذب من خوافة قليل الدوق .. ثم بسرعة تحولت الى اعتراف بالفارق بينى وبينه .. بين الشرق والغرب .. ثم الى تقرير فارق ثابت .. وبناء حائط جامد بارد بينى وبينه .. وعبر هذا الحائط البارد تشعبت كلماتى لتقول له : أنا تلميذك فلان ..

ولم أحفل بعد ذلك بيده العنيفة التى امتدت لتصافحنى

ولتعتذر لى .. ولم أهتم كثيرا بأنه يقرأ لى مقالاتى .. وأنه أعجب
بقضايا أثرتها .. وأنه تمنى لو يلقانى ليناقشنى ..

وكانت كلماته مثل رصاص انطلق على لوح من زجاج يصد
الرصاص .. فتحولت الى مجرد طرقة .. صوت وصدى ..
ثم جاءت تحيته وهزته لرأسه كمساحة تزيل المطر من فوق
لوح من الزجاج ..

وفى البن الاسود ابتلعت هذا الموقف البايخ ..

انه موقف سويسرى ..

وهذا الرجل قطعة من أرض وشوارع ووديان وجبال وغرابة
وصلابة وصحة وميكانيكية البلد التى أسمها سويسرا !



ولم تتغير هذه الصورة كثيرا عندما ذهبت الى سويسرا نفسها
.. فى بنسيون « الزيتون » بمدينة جنيف ، أعجبتنى صاحبة
البنسيون . فهى وحدها التى تطبخ وتنظف . وتزرع الحديقة
وتقلعها . وهى التى ترد على التليفون وتعيد تسوية الغرف .
وعندها بعد ذلك متسع من الوقت لتضحك وتجامل ..

وهى تشبه ترسا من النحاس اللامع يدور فى ساعة فضية
نظيفة . ولا علاقة لها بشئ آخر فى هذا العالم .. انها ست
بيت .. أو صاحبة بيت .. وهذا يكفيها ..

فهى فى حالها .. وكل الناس كذلك !

سألتها : ألم تعرفى الحب ؟

قالت : وأنا صغيرة .. وانتهى كل شئ !

— ما هذا الذى انتهى ؟

— الحب !

— وكيف بدأ ..

— أنت تعرف .

— ولكن الذى لا أعرفه هو كيف انتهى ؟

— هو مات .. وأنا ما أزال حية !

— اختصرت الموقف جدا ! ؟

— أنا لم اختصره !

— ولكن الحب ليس حكما نهائيا .. انه حكم يمكن الرجوع فيه
فالقلب الذى احب مرة .. يمكنه أن يحب مرة أخرى وبشكل
آخر .. فالقلب كالساعة لا يدق مرة واحدة .. ولا يمتلئ مرة
واحدة .. انه يدق دائما .. ويظل يمتلئ بأيدينا .. ويمتلئ
بنفسه ..

— أنا ساعة تذكارية .. لا تدق ولا تمتلئ !

— ولكنك ما تزالين جميلة ..

— اذن .. ساعة تذكارية جميلة ..

— وتذكارية لماذا ؟

— فليس عندي وقت للحب !

— ليس عندك وقت .. من الذى عنده وقت ؟

— انت .. انتم ..

والحقيقة أن المشكلة ليست الوقت .. ولكن هى طبيعة
السويسريين رجالا ونساء .. ليسوا خياليين ولا شعراء ..
وانما هم أناس عمليون جدا .. وهم يفضلون القلوب الخالية على
القلوب الثقيلة المليئة .. لان القلوب الخالية مثل الغرف النظيفة.
وهم يفضلون النظافة على أى شيء آخر !

وليس من الصدف أن تتفوق سويسرا فى صناعة الساعات ..
انها صناعة الدقة .. صناعة الزمن .. صناعة الارقام والتروس
والعقارب .. صناعة قطع الغيار الدقيقة .. صناعة الرقيب
الحسيب الذى يعد عليك أنفاسك .. ودقاتك .. وتربطه فى
يدك .. أو يرتبط بك من يدك ..

ان حياة الرجل السويسرى كالساعة منظمة ..

فمن المألوف جدا أن تجد فى البيت السويسرى جدولا على
الحائط .. هذا اذا انطبعت أفكاره على الحائط فى ساعة ندم أو
قرف — وهذا الجدول نصه : الاثنين : اجتماع اللجنة المدنية ..
الثلاثاء : اصلاح الزحافات .. الاربعاء : كوتشينة .. الخميس :

جمعية خيرية .. الجمعة : لجنة الحزب .. السبت : السينما
مع المدام .. الاحد : الذهاب الى الجبال ..

ولو حدث أنك زرت أحد أصدقائك - ان كان فى الامكان أن يكون
لك أصدقاء سويسريون لاي سبب - فى يوم ١٣ مايو سنة ١٩٥٠
الساعة الثالثة و ١٤ دقيقة ، وذهبت الى نفس الموعد بعد عشر
سنوات فستجد صديقك فى نفس المكان .. من البيت .. على الكرسي
المجاور للنافذة متمددا بينما زوجته تروح وتجيء فى البيت .. وكل
السريسين يتمددون فى بيوتهم وينتظرون فالبيت للسيدة وليس
للرجل السويسرى أى دور أو أى وزن فى بيته .. فهو عندما يدخل
من الباب الخارجى ينتقل الى دولة أخرى ذات سيادة عليه ..
الرجل وزوجته فى تكشيرة واحدة .. وارتدى كل منهما ملامح الجدد
والوقار .. مع أنه لا يوجد ما يبرر ذلك .. فهو رجل ظل يعمل
طول النهار كالنحلة .. لا يكف عن الانتقال من مكان الى مكان فى
نظام ميكانيكى دقيق .. وهى أيضا لم تكف عن الحركة من البيت الى
الدكان .. ومن الدكان الى السوق ومن السوق الى البيت .. وفى
كل غرف البيت .. تضع طبقا هنا .. وزهرة فى النافذة هناك ..
وعينها تلتقط ذرات التراب على الكراسى وعلى الكتب .. وتنفخ
وسنض .. والذي يرى الزوجة السويسرية وهى تنفض التراب
يخيل اليه أن السويسريين قد عدلوا نهائيا عن استخدام الاطباق
وأنهم سوف يأكلون على الارض .. فالارض كالصينى النظيف ..
وكل شئ فى البيت يدل على اهتمام غير عادى .. مع أن هذا الاهتمام
يحدث كل يوم ..

اذن هذه الزوجة فى نشاطها ساعة محددة ودقيقة ..
والزوج يتطلع هو أيضا الى هذا الموعد .. انه موعد الغداء ..
للأثنين طبعا وجاء موعد الغداء ودخل الزوج وفى نفس
اللحظة التى يدخل فيها الزوج تخرج الزوجة من المطبخ .. كل شئ
يتم بهدوء .. هو يدخل وهى تخرج .. هو يقعد وهى تقدم الطعام
.. هو يقترب من المائدة وهى أيضا .. هو يأكل وهى تأكل ..
هو يمضغ وهى تمضغ .. كأنهما يعزفان لحنا غير موسيقى على
نوتة موسيقية .. أو لعل الرجل - خصوصا الرجل - عندما ينظر
الى السقف من حين الى حين يبحث عن المايسترو الذى يضبط
حركة الطعام من الطبق الى الفم .. ومن الفم الى المعدة .. أما الزوجة
فتكتفى بمتابعة الزوج ولا داعى طبعا لان تنظر الى رجلين فى وقت
واحد .. فرجل مكشّر أثناء الأكل يكفى جدا !

أما لماذا هو مكشّر .. وهى أيضا ؟

هذا السؤال معناه : لماذا هو سويسرى .. وهى أيضا ؟

فالسويسرى ليس باسم الوجه . انه متجهم . جاد . ناشف .
ضخم . ولكنه منظم فى جميع الحالات . أنا لم أر سويسريا يبكى .
لانى لم أجد هذه الفرصة السعيدة . ولانه من الصعب على السويسريين
أن يفعلوا . ولان يديه مشغولتان فان نزلت دموعه أضطر أن
يتزع احدى يديه من العمل الذى يؤديه ويبحث عن منديل .. وكل
هذا يؤدى الى ارتباك عام .. ولان الدموع اذا نزلت من عينه يجب
أن تنزل بترتيب . ويظهر أن السويسريين لم يفلحوا فى ترتيب
دموعهم ، ولذلك عدلوا عن البكاء .. لانه أما أن تكون عملية البكاء
منظمة الدموع ، أو .. لا بكاء .. فلا بكاء !

الرجل السويسرى حريص على أن يكون فى حالة ..

فالدنيا كلها تتمزق وتنهار فى حروب من مئات السنين وتظل
سويسرا مزدهرة غنية متماسكة وسط عالم منهيار .. واذا حاول
انسان أن يهرب ، فأتى سويسرا .. اذا حاول أن يتجسس فأتى
سويسرا .. اذا حاول أن يودع أمواله بعيدا عن الايدى والعيون فأتى
سويسرا ..

وسويسرا هى البلد الوحيد فى الدنيا الذى لا يعرف الخوف ..
تصور شعبا لا يعرف الخوف . أناس لا يخافون من اليوم ولا من الغد
.. لا يخافون لا من الفقر ولا من الجوع ولا من المرض ولا من البطالة
.. ولا من الحرب !

أجيال وراء أجيال كلها لا تعرف الخوف ..

لا تعرف الفرع الذى يدق على الباب .. لا تعرف الخط التليفونى
الذى ينقطع لان أحدا يستمع الى التفاهات التى تقولها لى انسان ..
أناس لا يعرفون الشارع لانهم طردوا من أعمالهم .. لا يعرفون
الاحالة على المعاش الا فى الثمانين .. لا يهتدى اليهم الموت الا فى
التسعين .. يظل الموت يطاردهم فى الجليد وفى الوديان .. ثم يلهث
وراءهم ولا يدركهم الا بعد أن يكون أى مصرى ولد معهم فى نفس
اليوم قد مات من عشرين عاما !

لقد التزمت سويسرا الحياد بين المشاكل الدولية .

والتزمت الحياد بين مشاكلها الداخلية .. فالدستور ينص على أن تظل الخلافات القومية كما هي .. ففي سويسرا أربع لغات : الألمانية والفرنسية والإيطالية والرومانش - وهي اللغة السويسرية التي يتكلمها عدد قليل من الناس - ولكن الدستور صريح في أن يحتفظ كل انسان بلونه ودينه ولغته .. وهذه قضايا لا يناقشها أحد من الناس !

هذا قرار اتخذه الشعب السويسري سنة ١٩٣٨ : أن نبقى على وفاق مع خلافاتنا !

وبعض المفكرين ثائرون على هذا الحياد المزعوم من جانب سويسرا .. فهي ليست عضوا في الامم المتحدة . فكأنها بذلك ليست عضوا في أسرة . ليس لها دور . ليس لها وزن . ولا موقف . ومن الضروري أن تكون عضوا له موقف ووزن .. وهذا رأي !

ولم يتفق السويسريون على معنى الحياد ..

وانما اتفقوا على أن يقول كل انسان رأيه .. ويتمسك به .. أما الاتفاق على رأى واحد في هذه الخلافات ، فليس ضروريا .. والضروري أن يختلفوا .. والذي ليس ضروريا أن يتفقوا على معنى الحياد ..

وقديما سألوا الحكيم كونفوشيوس : ما الذى تفعله لو كنت امبراطورا للصين ؟

فقال : أحدد معانى الكلمات !

ولذلك فمن المستحيل أن يكون كونفوشيوس امبراطورا لسويسرا !

هذا اذا كان من الممكن أن يكون هناك امبراطور على الاطلاق .. لان السويسريين يؤمنون بالانتخاب وحرية الرأى .. وحرية اختيار الحاكم .. ولا يرون أن الفارق بينهم وبين الحاكم كبير .. واذا اختاروا الحاكم اختاروه هو وحده .. فلا حاشية ولا امرأ ولا خلفاء .. بل أن زوجة الحاكم نفسه .. أى رئيس الدولة ليست لها صفة فهي مجرد « مدام » .. ولا زوجة الحاكم ولا كل النساء لهن صوت في الانتخابات .. فالمرأة لا تعطى صوتها .. والمرأة تتقاضى أجرا أقل من أجر الرجل ، اذا اتفقا في كل شئ : المؤهل .. والوظيفة .. وساعات العمل !

والسبب هو : أيهما ينتج أكثر . .
في سويسرا يقولون : الرجل . .
ونحن لم نتفق على رأى فى هذه القضية . . لاننا لسنا سويسرا
. . ولا يمكن أن نكون !
ولكن لا شىء يتم فى البيت أو فى الغيط أو فى الشارع دون
سؤال الناس عن رأيهم . .
مثلا : اذا فرضنا أنك صاحب بيت فى سويسرا . . ولسبب ما
. . قررت أن تهدم هذا البيت . . وبقلوسك تقيم بيتا آخر . .
لا تنس أنك سويسرى وطنى مخلص . . وقلوسك موجودة فى
البنوك السويسرية وقد جاءتك من طريق حلال . . وبهذه الفلوس
تريد أن تهدم بيتا وتقيم بيتا آخر . .
وسوف تلجأ الى المهندسين والخبراء لهدم البيت . . وسنلجأ الى
المهندسين والعلماء لبناء بيت آخر . .
ومع حسن نيتك فانك لا تستطيع أن تهدم بيتك . . وأن تبني
بيتك . . فهناك شروط كثيرة . .
أولا : يجب أن يتأكد الشعب السويسرى فى هذه المدينة أن بيتك
يجب أن يهدم . . وأنك لست صاحب نزوة .
واذا فرضنا أنك صاحب نزوة وتريد أن تهدم بيتك وتبدد
أموالك ، فما دخل الناس ؟
الناس فى سويسرا لهم دخل : فليس من حقلك أن تزعجهم من غير
مناسبة . . تهدم وتبنى . . وليس من حقلك أيضا أن تطرد السكان
بذوق لانك صاحب نزوة مالية . .
واذا فرضنا ان بيتك هذا يستحق الهدم فكيف تهلمه . . لا بد
ان يتأكد للشعب السويسرى أن البيت يجب أن يهدم لانه قديم أو
منهار . . ولان الخبراء أكدوا بصورة علمية أن هذا البيت يجب أن
يهدم . فاذا تقرر ذلك أجريت أعمال هندسية كثيرة من بينها دراسة
طبيعة التربة . . وعملية جس التربة تتم بالآلات حديثة . . ويتولاها
مهندس أو عامل ماهر . .
ولا بد من استفتاء الشعب على بناء البيت : هل يبنى من دور أو
دورين أو ثلاثة أو أربعة . . وعلى الجيران أن يذهبوا ويدلوا بأصواتهم
فهذا يعترض لان اقامة هذا البيت ستفسد منظر الجبال والغابات . .
أو أن هذا البيت اذا ارتفع سوف يحجب الشمس . . أو يمنع الهواء

.. ولا بد أن تأقضى هذه الاعتراضات اهتماما عاما.. ولم يحدث كثيرا
ان أدت هذه الاعتراضات الى تعطيل بناء عمارة من العمارات .. لان
هذه الاعتراضات لا قيمة لها .. ولكن لانه يندر أن يهدم بيت ويقام
بيت آخر فى مكانه دون أن يكون هناك أسباب وجيهة جدا لهذه
العملية المعمارية ..

وقد سمعت من سفيرنا فى سويسره محمد توفيق عبد الفتاح أن
السفارة أقامت جناحا ملحقا بالسفارة . وبعد أن تم بناء الجناح
فؤجئت السفارة بأن أحد الجيران السويسريين يشكو السفارة الى
القضاء لان السفارة أقامت جناحا .. فهذا من حقها مادام الجناح قد
أستوفى كل الشروط الفنية .. ولكن لان لون هذا الجناح يؤذى العين
.. يؤذى عينيه ..

وقد رأيت هذا الجناح .. وفنحت عيني فيه وفى ألوانه ولم أشعر
بأى أذى ..

ولكن انذى ضايق هذا الجار السويسرى هو أن الجناح قد طلى
باللون الابيض الرمادى .. وهو لون غريب عن ألوان كل البيوت
المجاورة .. فهذا اللون صارخ .. تماما كالصوت الصارخ الذى
يوجع الاذن .. فهذا اللون يؤذى العين .. فهو جزء من الضوضاء
اللونية ..

ومادام الناس يريدون الهدوء الصوتى فى بيوتهم ، فهم أيضا
يريدون الهدوء اللونى والضوئى لعيونهم ١٠٠

وأنا احببى هذا السويسرى عشرين مرة .. مرة واحدة لان له
رأيا .. ومرات لانه مصر على هذا الرأى ولم يغير موقفه منذ ثلاث
سنوات !





هذه النقطة اجالة!

ن المشاهد الغربية في سويسرا أن تجد أحدا كريما متحمسا شهما.. وتحس لأول وهلة أنه ليس من أصل سويسري ، وأنه لابد أن يكون أجنبيا .. مع أنه لا يوجد شيء اسمه « الاصل السويسري » .. فالسويسريون يتكلمون الفرنسية ولا يشعرون أن فرنسا هي وطنهم الأم .. ويتكلمون الألمانية ، وألمانيا ليست وطنهم .. والإيطالية ، وإيطاليا ليست وطنهم الأول .. أنهم خليط .. أو هم سلطة : طماطم وخس وخيار .. في اناء من الكريستال النظيف اللين .. ولكن عناصر السلطة تعيش معا ، ويتكون منها هذا الطعام الشهى ، ولكنها لا تختلط تماما .. وإنما كل واحد يحرص على هذا الخلاف الواضح ..

ولذلك اندهشت عندما دعاني مسيو أحمد هوبر الصحفي السويسري الذي أسلم وتزوج من سيدة مصرية سمراء رقيقة .. أنه شاب في غاية الحيوية والحماس والدقة .. في غاية السويسرية .. وهو واسع الأفق .. وعلى المام دقيق بقضايا العالم السياسية .. وبقضايا الشرق .. وعلى فهم كاف بتاريخ الإسلام والمسلمين .. وهو رجل كريم خدوم .. أو أصبح كريما .. وهو على خلاف السويسريين تجده هو رب البيت .. هو الذي يدعوك الى الطعام .. و « يعزم » عليك .. ويكاد من شدة حفاوته بك أن يأكل لك أيضا ..

ومن المؤكد أنه لا يريد منا أن ننهض بعد الأكل مباشرة .. هذا مؤكد .. ولكن نظراته طاردة .. انها تكاد تسحب الطبق من يدك وتلقى بك على الباب الذي يفتح تلقائيا بمجرد اقترابك منه .. وعندما تسقط على السلالم النظيفة .. وتتماسك وتخرج من الباب النظيف الى الشارع النظيف .. وتتطلع الى شقته تجده أنه قد أطفأ النور .. ودخل في الفراش ليصحو بعد ذلك بخمس ساعات و ١٢ دقيقة ! لم يحدث شيء من ذلك .. هذا أكيد .. ولكن ترجمتي الدقيقة لنظراته السويسرية تقول ذلك ..

واذا تحدث اليك في موضوع أدبي أو فلسفي أو تاريخي ..
بالفرنسية أو بالانجليزية أو بالألمانية فهو رجل شاعري .. وهو مفكر
واضح .. وهذا الحماس والوضوح يجعلك تنسى أنه سويسري ..
ولكن عينه التي لا تبعد كثيرا عن النظر الى الباب تؤكد لك أنه من
الضروري أن تنهض .. لانك سائح ولانه موظف .. ولانك مصري
ولانه سويسري .. ولانه سويسري غير عادي ، ولانه من الضروري
أن تشجعه على ذلك فلا يكون كرمه عقوبة يستحقها وذلك بأن تسهر
عنده حتى الصباح .. مثلا !

وهذا الرجل أحمد هوبر مختلف عن السويسريين في شيء، جوهرى
جدا : انه يقنعك .. ولا يحاول أن يعلمك !

ومعظم السويسريين لا يهمهم كثيرا أن تقتنع .. انهم مثل
المدرسين يقول كل واحد منهم كلمته .. ثم يمضى .. أو مثل رجال
الدين كل واحد ينشد لك موعظته ثم يرفع يديه الى السماء ليشتبهز
أنت فرصة اتصاله بالسماء وتمضى لحالك .. على الأرض !

وهذا سر المتعة التي لا تنتهى فى الحديث الى المواطن السويسري
أحمد هوبر !



وعندما ذهبت الى أحد الساعاتية فى سويسرا .. وما أكثرهم ..
أنهم يشبهون مطاعم الفول فى القاهرة .. ومحلات الحلويات فى
دمشق .. وقدمت له ساعتى أريد لها زجاجة جديدة .. وأخذ
الرجل الساعة ووضعها فى درج .. وأعطانى وصلا .. وقال : ليست
عندى هذه الماركة !

قلت : لم أفهم ..

قال : اننى لا أصلح كل أنواع الساعات ، ولذلك يجب أن تذهب
الى المحل الخاص بهذه الماركة ..

ومد يده الى التليفون وسأل أحد المحلات .. أو هكذا فهمت
لانه يتكلم باللغة السويسرية التى هى خليط من الألمانية واللغة
الرومانشية ..

وأعطانى عنوان محل آخر ..

وذهبت .. والمحل الآخر أعطانى ورقة على أن أعود فى اليوم
التالى .. لان زجاج هذه الساعة يجب أن يستحضر من المصنع .

والمصنع خارج مدينة برن .. ثم ان ماركات الساعات السويسرية لا عدد لها .. ثم ان من حق أى انسان أن يصنع ساعة وأن يضع عليها الماركة التى تعجبه .. اما الماركات المشهورة فهى لا تصنع كل هذه الساعات التى تحمل ماركتها .. وانما الشركة الكبرى تعطى لشركات صغيرة حق استغلال هذا الاسم مقابل نسبة مئوية تتفق عليها ..

وفى اليوم الثانى عدت ..

ووجدت الزجاجاة ، وسالت كيف يمكن خلع زجاجاة وتركيب زجاجاة اخرى ..

ورأيت كيف .. وهنا أدركت ان الساعاتية عندنا هم اناس يصلحون بواير الجاز .. أو البلاعات .. فلا توجد عند الساعاتية فى سويسرا : لا سكاكين ولا كماشات .. ولا أحد يستخدم أسنانه فى فتح الساعة .. لا لان صناعة اطقم الاسنان لم تتطور الى هذه الدرجة ، ولكن لان هناك آلات دقيقة رقيقة .. تلمس الزجاج فيخرج كما تخرج الشعرة من العجين .. بنعومة وبلا ضوضاء ..

ثم ان كل انسان قد تخصص فى شيء ..

ثم ان كل شيء يتم فى هدوء الساعة وبرودة عقاربها ..

وأهم من ذلك ان للسويسريين طريقتهم الخاصة فى الاهتمام بك والترحيب بخدمتك .. فهم لا يضافحونك بحرارة .. ولكنهم يحترمونك بحرارة باطنية غير واضحة على الوجه أو فى الايدى التى تضغط .. وأنت كسائح لا تطمع فى أكثر من الخدمات المجانية .. واعتقد انها بجاجة منك أن تطلب من الناس أن يخدموك مجاناً .. وان يكونوا سعداء أيضا لذلك ! ..



واذا كانت سويسرة بلدا لا يعرف الخوف .. فهى أيضا بلد لا يعرف التوسع ..

فالارض محدودة من مئات السنين ..

وكل شبر يمكن استغلاله قد استغله السويسريون .. ولذلك فهم يحاولون تجويد التربة رأسيا .. بعد أن ضاقت بهم أفقيا .

وهم لا يريدون أى توسع سياسى أيضا ..

والتوسع الوحيد الذى يحرص عليه السويسريون هو التوسع فى الخدمات وفى استثمار أموالهم فى الخارج .. ولذلك فالمورد الوحيد لاقتصادهم كله هو التجارة .. التصدير الى الخارج والاستيراد والخدمات ..

وسويسرا قد تطورت فى صناعات كثيرة ، كما انها اول دولة فى العالم استخدمت الكهرباء فى ادارة كل اجهزتها تماما ، وكان ذلك فى سنة ١٩٤٢ ..

وهناك توارىخ أخرى مشهورة فى سويسرا ..
فى عام ١٨٠١ أقامت أول مصنع للنسيج ..
وفى عام ١٨٢٦ أصدرت أولى عملاتها المصرفية ..
وفى عام ١٨٥٠ أنتجت أول ساعة لا تملأ بالمفتاح ..
وفى عام ١٨٦٧ كانت أول من أنتج اللبن المسحوق ويحمل اسم نستله ..

وفى عام ١٨٧٧ أنتجت الساعة ذات الزنبرك ..
وفى عام ١٨٩٧ أنتجت الحرير الصناعى ..
وفى عام ١٩٢٣ كانت شركة ساندوس الطبية أول من توسع فى استخدام الاعشاب الطبية ..
وفى ١٩٢٥ عرف العالم أول انتاج للفيتامينات يحمل اسم شركة لاروش العالمية ..

واذا كان السويسريون عندهم جنون النظافة .. فعندهم أيضا جنون الخوف من المرض . ولذلك فهم يراعون القواعد الصحية بوعى .. شلى عكس الامريكان الذين يعرفون أن هناك مرضا .. أى مرض .. ويواجهون احتمال المرض بتعطى الفيتامينات والعقاقير الوقائية .. ولا يفكر الامريكى فى المرض الذى يتقيه .. وانما هو يتقى كل الامراض الممكنة .. فمن المؤلف أن تجد الامريكى يتألع حبوبا واقراصا فى الصباح وفى المساء .. ويترك لهذه الاقراص أن تتولى حراسته ضد الميكروبات .. أية ميكروبات .. اما السويسرى فهو يعرف الامراض المنتشرة ويتقيها بحساب لا لأنه بخيل فقط .. ولكن لأنه دقيق جدا ..

ليست صحته هو فقط .. ولكن صحة الحيوانات الموجودة في البيت .. الكلاب والقطط والابقار وغيرها .. خصوصا أن هناك بعض الأمراض المشتركة بيننا وبين هذه الحيوانات .. وهذه الأمراض موجودة ومعروفة ، والوقاية منها معروفة أيضا . ومرض قطة أو كلب مثل مرض أى طفل يلقي نفس الاهتمام والهموم والسؤال عن صحته كأي كائن حي .. و وفاة قطة ك وفاة انسان . أما اذا حدث أن داست إحدى السيارات قطة . فهذه كارثة للشارع كله .. وأحيانا للمدينة من أولها لآخرها .. ويتوقع الناس أن يروا صورة للحادث في التلفزيون وقد أمسك كل واحد منهم ورقة وقلما استعدادا للتعليق على الحادث .. أو على التلفزيون أو على طلب البرلمان للتحقيق في هذا الامر الخطير ! .

أعرف صديقا مصرية جاء الى سويسرا من المانيا وتعلق أطفاله بإحدى القطط . فاشترى القطعة ، وبعد أسبوع واحد من إقامته في سويسرا استدعاه البوليس لأمر هام . التلفزيون يقول : لامر هام .. والإشارة من البوليس تقول : لامر هام .. ومنظر البواب وهو يرشد رجل البوليس الى شقة الصديق يؤكد : انه هام وكارثة وطنية ! ..

وذهب الصديق المصري .. وفوجيء بأن كل الاحتمالات التي دارت في رأسه لا علاقة لها بأسباب الاستدعاء الى البوليس ، فضابط البوليس يشير اليه أن يجلس لكي يشرح له : ما الذي فعلته القطعة في الحديقة ؟

— ما الذي فعلته ..

— انها حفرت في الحديقة .. ثم تركت بعض مخلفاتها .. وأنت تعرف ..

— أعرف .. ماذا في هذا ..

— في هذا كل شيء .. ان القطعة مريضة ياسيدي .. عندها اسهال . تصور ! ..

— أستطيع أن أتصور . فما الذي أفعله أنا .. أنا شخصيا عندي اسهال ..

— أفهم ذلك .. ولكنك لا تستطيع أن تفعل ما فعلته القطعة ..

— طبعاً .. لا أفعل ..

— لماذا ؟ لان هناك مكانا مخصصا لذلك في شقتك .. فأين اذن المكان المخصص للقطعة ..

— هناك مكان .. ولكن القطعة لم تفعل ..

— ولماذا لم تفعل .. لانها قطعة غير متعلمة ..

— غير متعلمة ؟

— طبعا .. القطط يجب أن تتعلم أين تأكل وأين تشرب ..
وأين تتخلص من كل شيء بعد ذلك ..

— ان هذه القطعة قد اشتريتها ..

— كان يجب أن تسأل عن عادات هذه القطعة قبل أن تشتريها حتى لا تقف هذا الموقف .. الخ ..

باختصار : هذه القطعة عندها اسهال اضطرها الى أن تذهب الى الحديقة .. ولسوء الحظ رآها البواب .. وذهب البواب وأخبر البوليس .. لان القطعة مريضة . ومرض القطعة مسألة صحية ، ولا بد أن تعلم السلطات الصحية بذلك .. حتى لا تنقل العدوى الى بقية الحيوانات والاطفال ، والبواب يؤدي بذلك واجبا وطنيا ، ويراه كل الناس موقفا طبيعيا .. وهو لم يضع وقته في الكلام مع صاحب القطعة .. فصاحب القطعة ليس البوليس وليس الادارة الصحية .. ثم أن صاحب القطعة متهم ...

وانصرف الصديق المصرى ..

وفي البيت جاء الطبيب ، وأخذ عينات من مخلفات القطعة . وطلب التحفظ على القطعة . وأخذ القطعة في صندوق . وبعد التحاليل ثبت أن القطعة عندها اسهال حاد .. لانها قطعة قذاعات على الطعام المسلوق .. فلما أكلت الارز بالسمن واللحم بالسمن .. ذابت أحشاؤها في الحديقة ..

ولا بد من علاج للقطعة ..

ولا بد قبل العلاج أن تتعلم القطعة كيف تأكل وتشرب ، ولذلك يجب أن تذهب القطعة الى مدرسة ، وعلى حساب صاحبها .. وذهبت القطعة الى المدرسة . وقررت المدرسة ان القطعة في حاجة الى شهر ..

وهنا قال صاحب القطعة : انا لا أريدها ..

فكان رد ناظرة المدرسة : اذن ستظل القطة هنا تأكل وتشرب على حسابك . . وتتعلم أيضا الى أن نجد لها أحدا يؤويها في بيته ، وضحك صاحب القطة وهو يقول : افرض اننى أخذت القطة واطلقتها في الشارع .

وضحكت ناظرة المدرسة لهذه النكتة وقالت : في هذه الحالة لن يسكت البوليس على ذلك ولا الصحف . . وربما أدى ذلك . . ولم تقل الى طرده من سويسرا - وهذا ممكن ولهذا السبب الذى لا يتسم بالانسانية ! . .

ولم تعد القطة الى البيت لصعوبة الاحتفاظ بها . . فليس من السهل أن تأكل القطة وحدها الطعام المسلوق في بيت يأكل فيه الاطفال الارز الملفل وطواجن اللحم بالسمن . . ومن الصعب تربية قطة في بيت به اطفال كثيرون لا يدركون خطورة الموقف القططى في سويسرا الذى قد يؤدي الى سوء العلاقات بين شعبنا والشعب السويسرى ! . .



وسويسرا بلد من الناحية الفنية مجدبة . فلا أحد يعرف اسم فنان كبير في أى نوع من فروع الفن . .

ربما كان المهندس العالمى لوكوربوزييه هو أشهر سويسرى في دنيا المعمار - وهو يأسف لذلك أشد الاسف . لا على أنه مشهور ، ولكن على أنه سويسرى . . هكذا جاء في مذكراته ، ولم يشرح لنا سر هذا الاسف . .

وربما كان المثال بول كلى من أعظم صانعى التماثيل في العالم ، وهو سويسرى . .

وقد حدث أثناء تصوير فيلم « الرجل الثالث » في سويسرا من اخراج كارول ريد وبطولة أورسون ويلز أن خطرت للبطل عبارة جميلة ، فأضافها للفيلم . اما العبارة الصادقة فتقول : ان عصر النهضة الإيطالية الذى ارتكبت فيه مئات الجرائم ضد البشرية قد أسفر لنا عن عباقرة الرسم والنحت في التاريخ . . ولكن مئات السنين من الهدوء والسلام في سويسرا قد أسفرت عن اختراع الساعة التى يخرج منها البلبل ويعلن عن الوقت ! . .

ولكنها في عالم الادب أحسن حالا . . .

فقد ظهر في سويسرا أدريان عظيمان بعد الحرب .

وهذان الادبيان من الالمان السويسريين . وهما يكتبان باللغة الالمانية . وهما لذلك يحركان الادب الالمانى والاوروبى وهما قابعان في الجبال العالية ..

وقد فابلت هذين الادبيين ..

وترجمت لكل منهما .. أيضا .

الاديب الساخر فريدريش ديرنمات . فقد ترجمت له مسرحيات : رومولوس العظيم . وقد ظهرت على المسرح وقام ببطولتها صلاح منصور وزوزو نبيل وأخرجها سمير العصفورى .. وترجمت له مسرحية « هبط الملاك في بابل » .. ثم مسرحية : « الشهاب » التى ظهرت على مسرح الجيب - أي في المكان الذى لايناسبها . وبالاخراج الذى لايتفق مع طبيعتها ؟!

وقد لقيت ديرنمات في بيته .. والتقيت بزوجته .

وتحدثت اليه طويلا في الادب العالمى وفي أدبه .. وهو رجل رقيق .. يبدو سمينا قصيرا .. ولكن بعد لحظات من الجلوس اليه تجد السخرية في عينه وفي عبارته .. وإذا ضحك فهو يضحك من حنجرته ومن بطنه . . وهو رسام وموسيقى وشاعر ومهندس معمارى .. وابن قسيس . . وهو من أحسن أدباء اللغة الالمانية ..

أما ماكس فريش .. فهو أهدأ وأعمق .. وسخريته فلسفية .. وقد ترجمت له مسرحية « أمير الاراضى البور » ..

ومن الغريب أننى عندما ذهبت الى فريدريش ديرنمات قدم لى عشرات من فناجين القهوة .. ولم اتبه الى هذا الاسراف . وظننت أنه هو الذى يحب القهوة كثيرا . ولما سألته عن السبب قال لى : الستم تحبون القهوة هكذا .. فكلما فرغ فنجان صببت لك غيره ؟

ولما سألته عن الكتب العربية التى قراها .. اشرف لى هو أيضا - كما اعترف لى قبل ذلك في القاهرة البرتو مورافيا وسومرست موم - انه لم يقرأ غير ألف ليلة وكتابا للامير ارسلان . . وان معلوماته عن العالم العربى مع الاسف قليلة .. !

أما ماكس فريش فقد زرتة مع سفيرنا محمد توفيق عبد الفتاح .. وكان الرجل في انتظارنا . في غاية الصحة والحيوية . وهو يؤكد

لك أنه في صحة جيدة ولا يشكو من أى مرض . . وقد اختار البيت الذى يقيم فيه على ارتفاع مدروس . . لأنه عند هذا الارتفاع يكون الهواء منعشا والضغط معقولا . . وانسب ارتفاع لنشاط العقل الانسانى . . وكان قد أعد لنا زجاجة من الويسكى . . واعتذرنا . واعتذر هو أيضا لنفسه لأنه لا يشرب نهارا . .

وظهرت فتاة تروح وتجيء . ليست جميلة . فقال ماكس فريش :
أنها خطيبتى . .

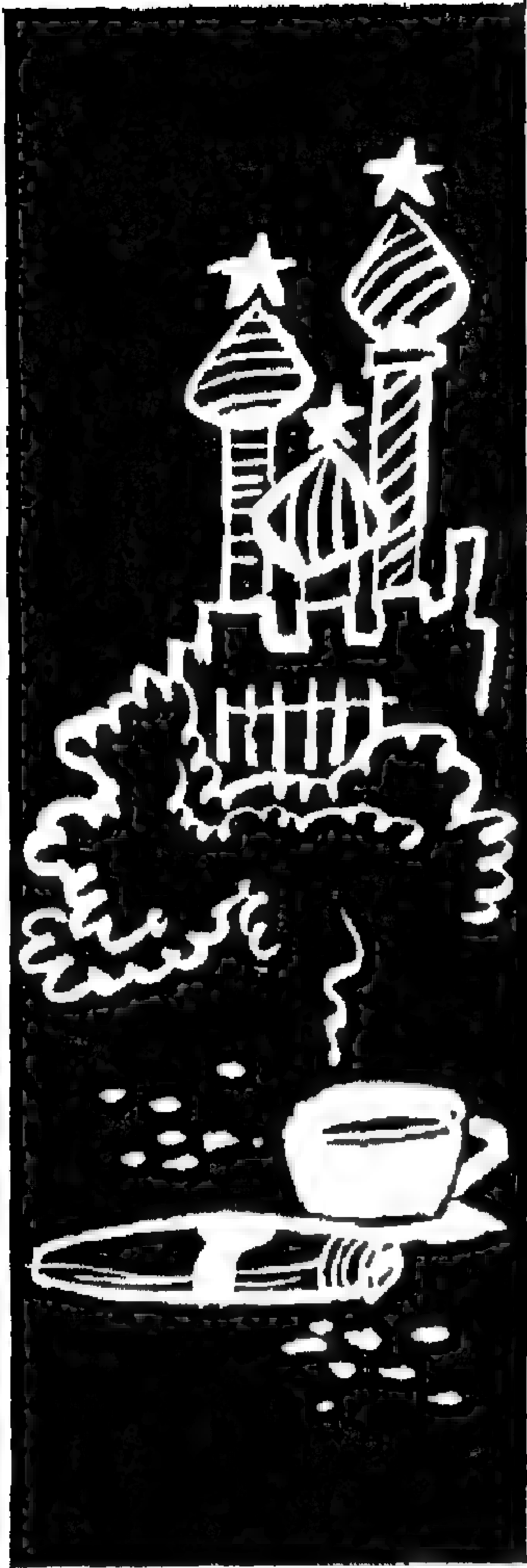
وفهمت . . ان كلمة « خطيبة » هى لقب قد أعطى لهذه الفتاة بمناسبة تشریفنا . .

ومن مئات السنين لم تعرف سويسرا أدبيا واحدا له قيمة عالمية . . ولا مفكرا واحدا بعد جان جاك روسو له أى وزن دولى . .

ان سويسرا أرادت ان تكون منطوية على ساعاتها وعلى أرضها وعلى مقشاتها . . وعلى خلافاتها الثابتة . . وأن تغلق عينها عن العالم . . وان كان العالم لا يغلق عينه عنها . . ضيقا وحسدا . . وان تنطوى على هدوئها وطمانينتها . . والا تمتد يدها لتصافح الا من تعرفه . . وحتى لا تمتد يديها فانها حريصة على ألا تعرف احدا . . ويكفى ان يعرفها الناس . . وهى تريد أن يعرفها الناس عاصمة النظافة : نظافة الارض والبيت واليد وهى البيئة التى لا ينشأ فيها فن ولا ادب . فالادب كالثبات ينمو فى الطين . .

ويبدو أن بعض السويسريين قد استورد كميات كبيرة من الطين تكفى لان ينشأ فيها عملاقان هما : ديرنمات . . وفريش !





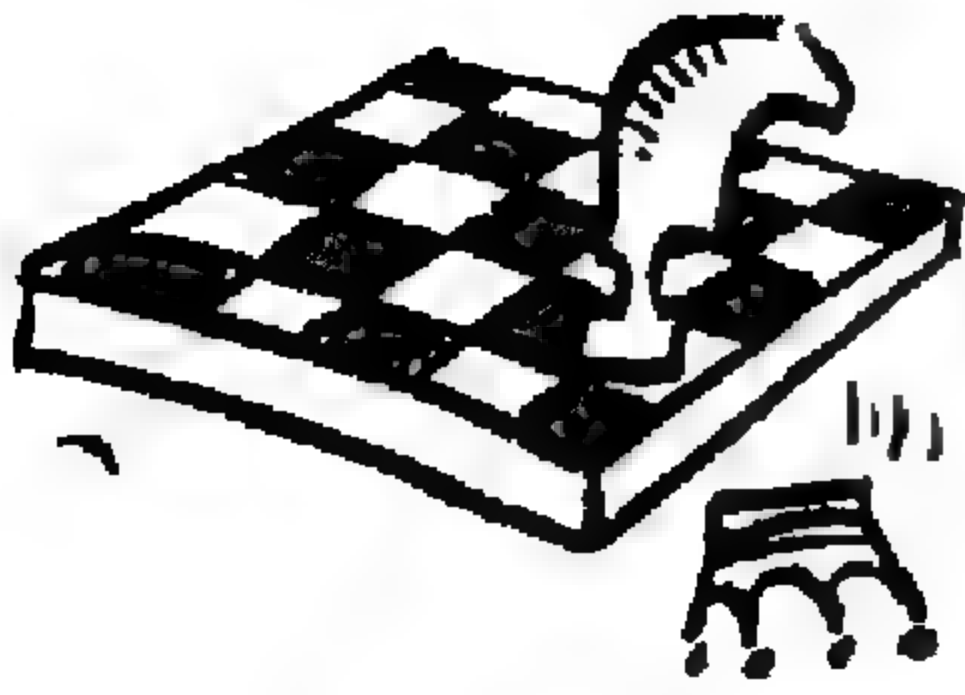
من القاعدة القوية الباردة

الى التطبيق الحار ..

من موسكو ..

الى هافانا !

من الحافيار الى الزننا من العكس



كنش الملك.. دائما !

كان الليل من نوع غريب .. باردا جدا ولكن ليس مظلما تماما .. ولا هواء ولا مطر .. ولكن برودة من طين .. أو طين بارد .. والناس أشباح .. أجسام سوداء ضخمة تروح وتجيء بسرعة ودون أن تصطدم بأحد .. وطبعاً دون أن يتسأند أحد على أحد .. أو يسقط أحد على الأرض كما حدث لي مرتين وأنا أتجه من لوكاندة أوكرانيا الى الميدان الأحمر الشهير .. ومن المؤكد أنني في هذه الساعة من الليل وفي هذه الدورة والظلام والسرعة ، لن أرى الميدان الأحمر .. ولن أرى الميدان .. ولكنها فكرة خطرت لي قبل أن أتأكد من غرفتي أن أذهب الى الميدان الأحمر .. لاشاهد الكرملين الذي رأيت صورته وقرأت عنه . ولم أره ليلاً وان أراه نهاراً .. فهمت أحداث التاريخ الحديث كلها .. فمن هنا خرجت أكبر ثورة عرفها الانسان في القرن العشرين ..

الفندق دافئ .. والناس كثيرون ومن هيئات مختلفة أو من كل الهيئات .. والمشرفات على الفندق سيدات كبيرات في السن .. وشيء من الصمت يربط الناس ببعضهم البعض .. ربما كان سبب الصمت أن أحداً لا يعرف لغة أحد .. أو لا داعي للكلام .. كأن الناس قالوا كل ما عندهم وجاعوا هنا ليبتلعوا ألسنتهم أو ليغسلوها أو ليقطعوها أو يستبدلوها .. صمت .. حاولت أنا شخصياً أن أقول .. ولكن لم أجد ما أقوله .. ما الذي أريده ؟ لا شيء .. ما الذي أحتاجه ؟ لا شيء .. ولمن أقول ؟ لا أحد .. إذن فالصمت سلوك طبيعي ..

الباب ضخم .. المدخل ضخم .. كل شيء كبير وغليظ وعريض وطويل ..

واتجهت الى اليسار .. الى يسار الفندق .. وليس كل شيء

هنا يتجه الى اليسار فقط .. طبعاً لا .. فهنا يمين ويسار والناس لهم أيضاً يمين ويسار .. ولكن اليسار في الفكر ..

والناس يروحون بخفة .. غريبة .. واتزان غريب .. وقد ارتدوا شيئاً من الفراء على الرأس .. وأحذية غليظة وتغطوا ببالطو .. احتاطوا تماماً للشتاء .. ولكنه ليس شتاء عندهم .. انه يوم من أيام السنة الدائمة الشتاء .. والارض من الطين .. ولا بد أن الضحكات التي تتعالى ورائي وأمامي بسبب أناس سقطوا على الارض .. مثلي .. انهم لم يعتادوا على المشي في شوارع موسكو المطينة .. لا هم اعتادوا .. ولا حتى هذه الاحذية التي يلبسونها أحذية .. انها مثل الجوارب .. رقيقة .. ولا تمنع تسرب الماء .. أما البرودة فقد تسللت واستقرت في العظام .. وأفقدتني الاحساس بالبرد .. ولو أمسك انسان سكيناً وقطع أنفي فلن أشعر .. ولو قطع أذني فلن أشعر .. ولكن من المؤكد انه لو قطع لساني فسوف أصرخ .. لان لساني في فمي .. وفمي دافئ .. أي أن أعصابي متنبهة ..

ولا أعرف ان كان الروس يضحكون لهذه الالصاب البهلوانية التي تقوم بها في الشوارع .. أو انهم اعتادوا عليها .. أو انهم مجاملون يضحكون في سرهم .. أو انهم بدأوا يضحقون بها ويفضلون عليها الشقلبة المدروسة ..

ووصلت الى الميدان الاحمر .. من المؤكد أنه ميدان ضخم واسع .. ولكنه ليس أحمر .. وهناك فوق مبنى الكرملين الضخم الذي يبدو مثل شبح هائل توجد نجمة حمراء .. واقتربنا من الميدان .. ومشينا في الميدان .. وأشاروا لنا بأن هذا المبنى هو الكرملين .. وهذا المبنى الى اليسار هو محل «الدوم» أكبر المحلات الاستهلاكية في موسكو يبيع كل ما يحتاجه المواطن .. وأن هنا قبر لينين .. وأنه لا بد ان نجى في ساعة مبكرة من الصباح لنقف في الطابور ساعة أو ساعتين لنلقى نظرة على صانع الثورة السوفيتية لينين الذي ولد من ٩٩ عاماً .. والذي عند ما بلغه أن أخاه قد اعدم لانه تأمر على القيصر أقسم ان ينتقم .. وقد انتقم وانتقم من هذا القيصر ومن عشرات الالوف من القياصرة والحاشية في روسيا وفي كل العالم !

بعد ذلك كان لا بد أن أعود الى الفندق .. لانه لا شيء يمكن عمله عند منتصف الليل في موسكو .. لا شيء .. لا المشي في

الشوارع نزهة .. ولا الذهاب الى المسارح ممكن .. ولا دار
الابرا .. فهذه أماكن مقدسة ومحجوزة فترات طويلة مقدما ..
ولا بد من تدبير وترتيب ... ولا يمكن الذهاب الى أى مكان آخر
.. ما دام الانسان غير قادر على الرؤية .. فلا معنى لشيء ..
اذن لابد من العودة الى الفندق .. ولا بد من النوم ..

الفندق كبير وليست له مزايا خاصة .. انه فندق أوربى ..
فيه تدفئة واضحة .. وفي الغرفة راديو يطلق علينا الموسيقى ..
وربما نشرات الاخبار .. لا تعرف .. فكل شيء بالروسى .. ومن
نافذة الغرفة يمكن رؤية الشارع أوضح .. هناك أضواء ..
وهناك كناسون - أو على الاصح كناسات - وهناك جهود عضلية
لتكديس الثلج أو الطين على جانب من الشارع .. وتجيء عربات
تحمل الطين أو الثلج وتنقله الى مكان لا نعرفه .. وهذه العملية
لا تتوقف لا ليلا ولا نهارا .. والروس يفضلون الجليد على هذا
الوحل .. فالجليد أنظف .. ومعهم حق ..

وفي الصباح بدا كل شيء واضحا ..

الشوارع واسعة جدا .. والطين الجاف أو الجليد المتسخ على
جانب الشارع .. والملابس القاتمة القصيرة الفخمة تطل منها وجوه
شعراء متوردة .. والعربات تروح وتجيء .. والسيارات والناس ..
أو الناس كالسيارات .. أو السيارات كالناس .. كل شيء يتحرك
لهدف .. متجه .. منطلق .. فلا مجال للتسكع الذى هو متعة فى
كل العواصم الاوربية الاخرى ..

والافطار يجب أن نتناوله فى المطعم ..

ويجب أن نخلع البالطو وان نقدم لحارس البلاطى سيجارا أو
سيجارة يشكرنا عليها بحماس ولهفة واضحة .. وفى المطعم يجب أن
تقدم البونات .. فكل واحد معه عدد من البونات للافطار والغداء
والعشاء .. وأجمل ما يمكنك أن تتناوله فى الصباح هو كوب
اللبن .. انه لبن دسم .. أما القهوة أو الشاي أو البيض والزبدة
فهى كلها أطعمة عادية .. والخبز هنا أبيض وأسود .. الاسود الد

وأمام الفندق تجمعنا .. وفى اتوبيس ركبنا .. والى مترجمة
تحدث العربية - أو نوعا منها - أعطينا أذاننا لنسمع منها القليل
جدا عن العاصمة موسكو .. فلسنا فى حاجة الى ان نعرف منها

الكثير ، لاننا نعرف الكثير عن موسكو وعن روسيا وعن الشعب السوفيتي .. وكل ما ينقصنا هو بعض المعلومات عن المعالم المحددة .. مثل تمثال من هذا .. انه تمثال الشاعر الافريقى الاصل بوشكين أو شارع جوركى .. وجوركى اسم قد اطلق على كثير من الشوارع والمتاحف والمكتبات ..

وأروع ما رأيناه فى موسكو هو متحف الرحلات الفضائية .. ان هناك تماتيل لتخليد يوم اطلاق أول سفينة فضاء الى العالم الخارجى .. يوم ٤ اكتوبر سنة ١٩٥٧ وكان أول قمر صناعى روسى اسمه « اسبوتنك » .. وكان وزنه ١٨٤ رطلا وقطره ٢٢ بوصة وينطلق بسرعة ١٨ ألف ميل ويقطع مداره حول الارض فى ٩٦ دقيقة وأقصى ارتفاع له ٥٦٠ ميلا وأقرب ارتفاع له ١٢٥ ميلا . وقد احترق هذا القمر الصناعى يوم ٤ يناير سنة ١٩٥٨ ..

وفى الفندق تباع نماذج لهذا القمر وتطلق صوتا مشابها للصوت الذى كان يبعث به الى الارض من الفضاء الخارجى .. ورأيت له نموذجا فى المعرض الدولى ببروكسل .. وفى متحف الرحلات الفضائية بموسكو توجد نماذج لهذا القمر .. وللقمر الذى انطلق به جاجارين .. وسفن أخرى كثيرة ..

ومن الواضح ان هذه السفن ليست كبيرة .. انه سيجن علمى ضيق .. ولكن المشكلة والصعوبة هى أن هذه السفينة كلما زاد حجمها ووزنها احتاجت الى قوة صاروخية هائلة لدفعها بعيدا عن جاذبية الارض .. ثم اعادتها الى الارض سالمة .. والنظريات العلمية لارسال واستعادة سفن الفضاء موجودة عند الروس والامريكان .. ولكن الروس تقدموا على الامريكان فى صناعة الصواريخ وفى مادة الوقود .. ولذلك فالروس يطلقون احجاما أكبر وأوزانا أثقل ..

ومنظر سفن الفضاء لا يهزك ولا يبهرك .. لان الانسان لا يفهم شيئا من هذا الذى أمامه .. فهى براميل دائرية وتخرج منها بعض الاسلاك .. ومن المؤكد أن الروس - وهذا طبيعى - قد جردوا هذه السفن من كل ما يكشف عن الاجهزة العلمية المعقدة التى بها . فهى سر .. ولا أعرف ان كانوا فى أمريكا يعرضون سفن فضائهم فى أى معرض .. ولكنها أسرار .. وحرب معلومات .. ولا بد أن هناك زوارا آخرين أكثر فهما وعلماء .. وواضح أن التراجمة الذين يفرجوننا على هذه الاختراعات الروسية يدركون أننا لا نفهم منها

شيئا .. وهذا هو سر عدم الحماس في الشرح .. فلا يمكن أن يقال انهم تعبوا من الكلام فنحن ما نزال في ساعة مبكرة .. ومن الخير انهم فعلوا ذلك فنحن لا نفهم شيئا من هذه العمليات العلمية الباهرة ...

وفي الفندق أخيرا وجدنا شيئا نضحك له .. ولكن ضحك بحساب وبرفق * فقد التفتت المترجمة الروسية تقول : غدا نلتقي في صحن الدار في الساعة التاسعة !

قالتها باللغة العربية طبعاً .. ومعنى هذه الجملة : غدا نلتقي في بهو الفندق في الساعة التاسعة * وحاولت ان أفهمها ان « صحن » هذه كلمة لم يعد أحد يستخدمها .. وان الدار أفضل منها كلمة الفندق * ولكنها أصرت على الدار وعلى الصحن ..

وعرفت بعد ذلك أن لغتها العربية من نوع خاص فعندها كلمة واحدة فقط لكل شيء : فمثلاً : النافذة .. عندها هذه الكلمة فقط .. فاذا قلت لها : الشباك لا تعرف معنى هذه الكلمة ..

وفي صحن الدار في اليوم التالي التقينا .. وركبنا الاتوبيس الساخن ودار بنا في شوارع موسكو .. وأهم ما رأينا هو محطة المترو .. انها أجمل وأعظم محطة مترو في العالم كله .. في غاية الفخامة .. ومن المؤكد أن الروس يعتزون بها .. ومن النادر أن يصور فيلم في موسكو لا تظهر فيه هذه المحطة .. جميلة وأنيقة و ضخمة وتكاليفها لا يمكن حصرها .. الرخام والنجف الكريستال .. وعربات المترو .. والمصاعد والسجاجيد .. تحفة معمارية هندسية لا نظير لها ..

وفي الليل ذهبت الى السيرك ..

واكتشفت اننى وقعت في خطأ فظيع .. فقد ارتديت جاكete فوق بلوفر فوق بلوفر .. وفوق الجمينع بالطو .. وعلى الرغم من أن الناس حولي قد خلعوا البلاطى وتركوها في أماكنها الخاصة قبل الجلوس في أماكنهم ، فانه من الضروري أن احتفظ بالبالطو لاننى من غير كرافته * ولا بد من البدلة والكرافتة في المسرح والسينما والاورا وأى مكان يذهب اليه الانسان .. ولذلك تسترت بالبالطو على هذه الغلطة الفظيعة ..

ومثل هذه الغلطة يقع فيها كثيرون من الناس في القاهرة ..

فيذهبون الى حفلات السفارة السوفيتية والدول الاشتراكية بالقميص والبنطلون أو يبدل من غير كرافته .. ولكنهم يجدون الدبلوماسيين الاشتراكيين في غاية الاناقة .. وبالكرافته .. لانه لا علاقة لبهدة بالاشتراكية القائمة على العلم وعلى النظام وعلى المظهر الحسن .. الذى هو أحسن دعاية للمجتمع المخطط .. للمجتمع العلمى .. وليس المجتمع المبهدل المختل من العلم ومن التنظيم !

والروس قد برعوا فى كل فنون الرقص الاستعراضى .. وفى رقص الباليه .. والباليه الروسى هو سيد الباليه فى العالم .. وقد رأيت فى القاهرة الراقصة العظيمة تمارا تومانوففا .. وأولاتوففا .. وليبشنسكيا .. وغيرهن ..

وعلى الرغم من المظهر المتجهم الذى يبدو عليه الروس فى الشوارع — أنا لم أرهم الا فى الشوارع — فانهم فى الملاحى يضحكون من كل قلوبهم .. ككل الناس ..

ويبدو أن روسيا بعد خروتشيف قد بحبت عن نفسها قليلا .. وقد ذابت هذه الجهامة ومعها الجليد .. ومعها ذلك الطابع القاسى الذى يتسم به الروس أو الذى التصق فى أذهاننا عن الروس الى حد ما !

وفى المطار استمعت الى الموسيقى الامريكية الحديثة : روك أند روك .. تشا تشا .. والتويست .. أيضا .. وقد أدهشنا ذلك .. وأدهشنا أكثر أن معظم البائعات فى المطار يحرصن على البيع ويتنافسن .. وفهمنا ان كل واحدة لها عمولة على البيع ..

وقد حاول أحد الاصدقاء ان يشتري بشرط .. وكان الشرط هو أن يلتقى بالفتاة يوما ما وفى مكان ما .. وأمسكت به وقلت له : هل تريد بدولار واحد أن تستغل مبدأ الحافز الفردى الذى نادى به ليبرمان أسوأ استغلال .. بدولار واحد .. ومن أول فتاة ومن أول لحظة ..

وكانت نكتة الرحلة كلها ..

وفى الفندق تعشنا ورأينا شباب موسكو يرقصون التويست .. وصفقنا طويلا للشبان .. ولا أعرف بالضبط ما الذى صفقت له .. هل لانهم يرقصون رقصا أمريكيا .. ومعنى ذلك ان الفن للجميع .. وانه لا يوجد رقص أمريكى ورقص روسى .. هل أريد أن

أشجع هؤلاء الشبان وغيرهم من الشبان على الرقص .. أى رقص
هل المفاجأة أدهشتنى .. وأنا أصفق لمن اذاب الجليد بين الاعداء ..
الامريكان والروس .. هل أصفق لحبيبتى لاننى نسيت ان ألبس
الكرافتة وظللت الوحيد الذى خلع البالطو وزرر الجاكتة ورفع ياقتها
الى أعلى حول العنق .. هل لانهم فعلا فى حاجة الى تشجيع لان
الرقص الذى أراه ليس انسيابيا .. انه عنيف .. انه عملية اقتلاع
فتاة والقائوها على الارض ثم العدول عن ذلك فى آخر لحظة ..
ربما كان ذلك .. أو كان أى شئ .. أو كان الطعام اللذيذ الذى
تناولناه على مائدة فخمة ضخمة .. أريقت فيها ألوف الاكواب
من الفودكا ومئات العلب من الكافيار .. وكان ذلك أول الاحساس
الحقيقى بأن هذه هى موسكو ..

كانت ساعات جميلة ولذيذة وفيها تصفيق كثير ليس له معنى
واضح .. وفيها مصافحات شديدة وعديدة باليد ..

ولم يكن أمامنا وقت طويل نضيعه أو نقضيه فى ليل موسكو أو
فى نهارها .. فلا بد أن نعود الى المطار .. ومن المطار نستقل
الطائرة الضخمة الى كوبا حيث يعقد مؤتمر القارات الثلاث ..
ونحن بعض وفوده المسافرة من القاهرة ..

الطائرة ضخمة ومرتفعة جدا .. وذات ثمانية محركات ..
المحركات مزدوجة .. اثنين .. اثنين .. ويتحركان فى اتجاهين
متعاكسين .. لماذا ؟ نظرية علمية تقول بأن هذا اذا حدث ازدادت
قوة الاندفاع .. لم أسأل أحدا عن هذه النظرية ولم أفكر فى كيفية
تطبيقها ...

الطائرة من الداخل كالسفينة .. مقاعد مرتفعة ومقاعد منخفضة
.. وعلى الجوانب من الامام غرف طاقم الطائرة .. وفى كل مكان
لوحة شطرنج .. انها لعبة الروس .. ولماذا اختاروها لا أعرف ..
هل لانها نوع من التكتيك الصامت المتجهم .. هل لانها لعبة تنتهى
عادة بمقتل الملك .. يجوز وهم متفوقون فيها أيضا ..

وفى جو ملبد بالسحاب .. وفيه عواصف باردة .. أو برد عاصف
أتجهنا الى الطائرة .. أما حقائبنا فمن المألوف اننا لا نعرف عنها أى
شئ .. انها تدخل وتخرج وتنتقل الى الفندق دون أن نعرف عنها
شيئا .. وليس من الضرورى أن نعرف .. لانه لا خوف على ذلك ..
فهى تتعرض لاجراءات أمن دقيقة .. وليس من شأنك أن تعرف ماذا

جری لها . . فصيانة البلاد من شأن الناس آخرين مدربين وعارفين
وفي غاية اليقظة . . « بس اركب انت . . اركب ! » . .

سمعتها من ورائي . . وركبت . . وجلست الى جوار النافذة .
ولم أعرف من أحد كم من الوقت تستغرق هذه الرحلة الى . . الى
لا أعرف الى أين ؟

اركب ! ركبت . . اقعد قعدت . . اسكت ! سكت . . « نام » . .
لا أستطيع . . كل . . اشرب ! . . لا مانع ! العب شطرنج ! ممكن !

وبعد ساعة أو ساعتين . . اضيئت انوار الطائرة . . وجاءت
صواني الاكل . . لحم وكافيار . . وخبز وسلطة وزبدة . . ولست
متأكدا في هذه اللحظة ان كان الذي قدم لنا الاكل رجلا أو نساء . .
فالمطائرة ضخمة ولا تهتز . . ولا أحد يرى أى شيء من النافذة . .
ولا يسمع أى شيء . . ولا أحد يقول لك أى كلام . . والحقيقة انه
لا ضرورة لاي كلام . . فما الذي يمكن أن يقال لك . . نحن متجهون
الى القطب الشمالى . . وليلا . . فلا شيء يمكن أن يقال . .

وأحسنا بأن الطائرة تهبط . . هكذا دون أن يلفت نظرك أحد . .
ويبدو أن صناعة الطائرات متقدمة في روسيا جدا . . فهي
وسيلتها الوحيدة الى الانتقال في أراضيها الشاسعة . .

ومن النافذة تنظر الى لاشيء . . لاشيء يمكن رؤيته . . انه سواد
. . أو بياض . . أو ألوان رمادية شاسعة واسعة لا أول لها ولا آخر . .
وهبطت الطائرة . . ومن النافذة لا ترى أى شيء . . وان كانت الارض
بيضاء ثلجية . . وهناك مصابيح تعكس صورة لبيت صغيرة . .
أو مطار صغير . . أو أى شيء صغير . .

وانفتح باب الطائرة . . ونزلنا . . وكانت درجة الحرارة عشرين
تحت الصفر . . وهذا الرقم لا يمكن أن يكون له أى معنى أو دلالة
عندك الا اذا ذهبت الى هذه المناطق من العالم . . وخرجت برأسى
وفقدت الاحساس فورا برأسى . . ان شيئا أبيض قاطعا قد فصلها
عنى في نفس اللحظة التى أخرجتها من باب الطائرة . . ونزلت اترنج
بلا رأس . . فلم أعتد بعد أن أكون مقطوع الرقبة . . ولمحت عند نهاية
السلم رجلا روسيا عارى الوجه وقف ينتظرنا . . والغريب انه
يضحك . . ياخبر . . هذه أول ضحكة في منتصف الليل وفي القطب
الشمالى وتحت الصفر بعشرين درجة . . وقد ذكرتني بضحكة أخرى
تشرفت بها في هوليوود عندما قابلت مارلين مونرو . . وهى قطعة من

الثلج المخلوط بالنبيد وقد انتظرتها ساعات ولم تظهر، الا دقيقة
لتقول لى : ازيك يا انت .. وهنا انخفضت درجة حرارتى الى
عشرين تحت الصفر !

وفى داخل المطار الصغير كان كل شيء دافئا جدا .. من أين اتوا
بهذا الدفء .. وفى كل مكان لوحات للشطرنج .. ويبدو انها اللعبة
الوحيدة التى يعصر فيها الانسان نفسه .. ويتأمر على الملك
بصورة عسكرية صامته ..

وجاءت مديرة الاستراحة وقدمت لنا الشاي .. وكان الشاي
خفيفا . وحاولنا أن نشترى منها شيئا ولكنها أصرّت على أن البيع
بالعملات الصعبة .. وحاولنا عن طريق مترجم أن نقول لها : أننا
ضيوف .. وعابرو سبيل - على الرغم من أنه لم يكن هناك سبيل -
ولكنها أصرّت وبشدة ونهائيا : بالعملات الصعبة فقط !

وهذا معناه ان هذا المطار مكان سياحى .. !

سياحى وفى القطب الشمالى ؟ يجوز فنحن لسنا رواد القطب
الشمالى .. ولا رواد الطريق الوحيد بين موسكو وكوبا .. فكوبا
معزولة تماما عن امريكا اللاتينية . ولا سبيل الى الوصول اليها من
امريكا التى تبعد عنها ٢٥٠ ميلا الا عن طريق أوروبا .. أى الا عن
طريق الالف الاميال .. فلا بد ان يكون هذا المطار الصغير الدافئ
الذى أقيم حديثا مكانا سياحيا هاما !

وقد تصورت ان الحصول على كوب من الشاي بعد ذلك أمر
صعب فشربت كوبا آخر .. وقد اعسدت هذه السيدة كل شيء
لاستقبالنا .. الشاي .. والشاي .. وابتسامة لقاء .. وابتسامة
وداع .. وعدنا الى الطائرة .. وحدث بالضبط ما حدث لى قبل ذلك
.. عندما أخرجت رأسى من باب المطار .. طارت رأسى .. ومشيت
هذه المسافة القصيرة على أرض جليدية نظيفة .. وبعد أن دخلت
الطائرة .. تلمست رأسى فوجدته فى مكانه .. وظل كذلك الى أن
وصلت كوبا .. واعتقد انه بقى فى مكانه .. وان كانت تصرفاتى
تدل على أن خلا حدث فيه ! ..

فى الطائرة وجدنا شيئا نتسلى به ..

ففى أوقات منظمة تضاء الطائرة ويقدمون لنا كميات كبيرة من
الطعام . وكنا نوقظ زملائنا النائمين .. لكى .. يفطروا أو يتغذوا
.. أو يتعشوا .. نحن لانعرف فالدنيا ليل دائم ..

وفي اللحظة التي نجد أمامنا الطعام ننظر من النافذة ، لانجد شيئا قد تغير .. فنحن فوق السحاب .. ولا نرى لا شمس ولا قمرا .. ولكن لا بد أن هناك أشياء كثيرة تجري تحت السحاب لانعرفها .. ربما طلعت الشمس .. وتغطت بهذه البطاطين القائمة من السحب .. لا أحد يعرف ..

وعندما أشرق الشمس اضيئت الانوار وقيل لنا : طعام العشاء .. وسألت مستخدما بعض الكلمات الروسية القليلة التي عرفتھا من القاهرة ودرستها في الطائرة فقل انه العشاء .. نعم العشاء كما سمعتها .. وامسح عيني وانظر من النافذة وأشير الى قرص الشمس ..

ويكون الجواب : نعم .. ولكنه موعد العشاء في موسكو الآن .. العشاء في موسكو .. وبعد ساعة نتناول الافطار في كوبا .. جميلة جدا هذه اللعبة بعقارب الساعة !





قصص دينة ودودة !

والدقارب من أمريكا اللاتينية نقرب من الدفء والضوء
والألوان والأشجار والحلاوة والمرارة .. وكل
الألوان الصارخة في كل شيء ..

والأرض كما تبدو من الطائرة لونها أحمر .. وقد رأيت هذا
اللون قبل ذلك في آسيا .. في الهند وفي أندونيسيا والفلبين ..
وفي أستراليا أيضا .. وهذه الأشجار الاستوائية أعرفها ..
وطعمها على لساني .. وذكرياتنا حية في رأسي .. ومجرد رؤية
أشجار جوز الهند يحررنني من ملابس .. ويردني إلى أصلي ..
إنسان بدائي عريان .. أو إنسان قريب الشبه من القروء .. أو
قرد .. فقد تسلقت هذه الأشجار في جزر هاواي .. ونمت
عليها .. وكدت أغرق عندما كبس على النوم .. وتوهمت أنني
على سرير ففردت ذراعي ومددت ساقي .. وغريزة البقاء وحدها
هي التي جعلت يدي على النخلة المنحنية على سطح ماء المحيط
الهادي .. ولوسقطت في الماء لغرقت .. لأنني لا أعرف السباحة ..
وقيل لي بعد ذلك أن الماء يبلغ المترين .. وأنه لولا ستر ربنا ..
لكنت وكنت .. فالحمد لله على الستر ! ..

وهذه الرطوبة الشديدة في مطار كوبا أعرفها .. أحسستها
على قفائي في جاكرتا .. حيث الرطوبة تصل إلى ٨٠ ٪ وأحيانا
إلى ١٠٠ ٪ .. وقد التصقت ملابس من الرطوبة .. ولكن هنا
يوجد دفء .. وتوجد حرارة وحياة .. وهنا ناس .. سمر ..
بيض .. رجال ونساء .. وينظرون ويتفرجون .. وهنا أعلام ..
ونحن هنا عرسان .. وهذه زفة سياسية .. هنا ينعقد « مؤتمر
القارات الثلاث » لادانة الاستعمار الأمريكي الذي يريد أن يخنق
كوبا .. وأن يبتلع بلادنا ومنطقتنا كلها .. وفيتنام .. وغيرها

وغيرها .. وكوبا هي هذه الدولة الصغيرة التي تتحدى أكبر دولة في العالم وفي قلب أمريكا وعلى مدى ساعة من طائراتها .. ودقائق من صواريخها .. ومع ذلك لا تستطيع أمريكا أن تقضى على حرية الإنسان الصغير في أن يقول : لا .. وأن تجعله كلمة «لا» أكبر من أي كبير .. واستطاعت كوبا أن تقول لأمريكا : لا .. ولا تزال تقولها !

وأحسست أنني قريب من الأرض .. فعلاً .. هذه أرض .. وليست سحاباً ولا ضباباً .. وهذه سيارة واسعة تنقلت .. وهذه أعلام .. وبيوت جميلة .. وشوارع واسعة .. وهذه هي أول أرض رأيها كولمبوس في سنة ١٤٩٢ عندما جاء يكتشف الهند .. ووصف هذه الأرض في مذكراته : بأنها أجمل وأروع لون أخضر رآه في حياته ..

وكوبا جزيرة لها شكل تمساح .. وحول هذا التمساح أكثر من ١٦٠٠ جزيرة أخرى صغيرة .. ومساحتها مائة ألف كيلومتر مربع .. أي أن مساحتها أكبر من كل من النمسا والمجر والدنمرك وسويسره وبلجيكا .. وبها أكثر من ٢٠٠ نهر صغير ..

وأقرب الدول إليها هي هايتي - على مدى ٧٧ كيلومترا - وجامايكا على مدى ١٤٠ كيلومترا ..

وفلوريدا الأمريكية على مدى ١٨٠ كيلومترا .. ومن فلوريدا هذه تنطلق طائرات ضخمة يرغمها بعض الركاب على الهبوط في كوبا تحت تهديد مسدس صغير .. وهذه هي أشهر اللعب التي يتسلى بها أهل كوبا هذه الايام !

وهناك لعبة أخرى هي أن هناك سفينة تجسس أمريكية تقف في مواجهة العاصمة هافانا .. خارج المياه الإقليمية .. منذ سنوات .. تلتقط الاشارات الداخلة والخارجة من كوبا .. والرجعيون الكوبيون يفقدون أعصابهم اذا اختفت هذه السفينة .. وكثيرا ما أطلقت شائعات بأنها اختفت فأطل الناس من النوافذ ليتأكدوا .. وليتأكد الواقفون في الشارع أن هؤلاء رجعيون !

لم أشعر بغرابة في هافانا ..

هذه الأرض كأنى رأيتها .. هؤلاء الناس كأنى أعرفهم .. هذه الاشجار .. هذا الزحام .. تمنيت أن أبقى شهرا أو شهرين لو كنت أستطيع ..

وكان مقرنا هو فندق هيلتون الذى تغير اسمه وأصبح « هابانا الحرة » - أى هافانا الحرة .. والفاء ينطقونها هنا باء ..

وهذه أول مرة أنزل فى فندق هيلتون فى أى مكان فى العالم .. والفندق كان مقفلا وفتح الكوبيون لاستيعاب هذا العدد الهائل من أعضاء الوفود القادمة من القارات الثلاث : آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية .. وهناك فندق آخر فخم جدا قد أعد لاستقبال بقية الأعضاء الوفود ..

ومن أول لحظة تحس أن كل شيء فى هافانا قد أعد لانحفاوة السخية بأعضاء الوفود .. ففى استطاعتك أن تدخل أى مكان .. أى محل .. أى مسرح .. أى سينما .. كل شيء قد أعد لك ويعرفك وينتظرك .. وكل الناس الذين حولك شبان .. لان كوبا شابة .. ورئيسها كاسترو شاب أيضا .. وأخوه شاب .. وجيفارا زميله فى الكفاح شاب .. كان شابا .. والذين تراه من الشبان والشابات تلاميذ فى مدارس أو جامعات .. أو موظفون صغار .. كلهم جاءوا لخدموك .. كل ما تريد .. حتى الفندق تستطيع أن تسمح حذاءك وتحلق شعرك على حساب الدولة ..

وكل شيء منظم ودقيق .. المطبوعات والمنشورات والصور ..

حتى عندما جلست مع الاديب الايطالى البرتو مورافيا وزوجته الاديبه دانشيا ماريانى وطلبت التقاط عدد من الصور لنا .. أخذت الصور وطبعت وأرسلت وبسرعة ومع الشكر الجزيل لك .. وعندما ذهبت الى البيت الذى كان يسكنه الاديب الأمريكى همنجواى رافقنى أحد المصورين .. والتقطت ما أردت من الصور .. وطبعها وقدمها لى .. فى غاية الدقة والرقه والسرعة ..

واذا كانت هناك ملاحظات سريعة على مدينة هافانا فهى أن المدينة نظيفة جدا .. والمحلات نظيفة .. والبيوت والفلل والقصور والمرافق فى غاية الجمال .. كل هذه البيوت كان يملكها ويسكنها الأمريكان .. ان هافانا كانت مدينة الملذات .. فكل أمريكى غنى له شقة .. أو قصر ... وليس أسهل من أن يركب طائرته ومعه صديقة أو يتجه الى صديقة .. ويختفى ساعتين أو ثلاثا فى هافانا ثم يعود الى مكتبه فى أمريكا ..

هكذا عاشت هافانا « جرسونيرة » لأمريكا .. ويمكن أن يقال كل كوبا ..

فكوبا التى تباع السكر كالبها مصابة بمرض السكر .. فهى
لا تذوقه .. محرم عليها .. فالامريكان يزرعون ويقلعون
ويقطعونه ويصنعونه ويصدرونه بالاسعار التى تعجبهم والشعب
الكوبى يتفرج على العلم الحديث الذى يحول القصب الى سكريذوقه
كل الناس الا الذين زرعوه !

والدخان يصنعه الامريكان ويبيعونه فى كل عواصم الدنيا ..
والبن .. والاناناس .. وجوزالهند .. كل شىء تحتكره أمريكا ..
والشعب متهدم متململ .. والخونة على رؤوس الحكومات يساومون
ويبيعون البلاد .. كل هذه الملايين السبعة لا تملك من أمر بلادها
شيئا ..

وظلت كوبا حتى أول يناير سنة ١٩٥٩ مزرعة أمريكية ..

أما ثورة كاسترو فهى التى أطاحت بالرجعية والاقطاع وبالنفوذ
الامريكى فى كوبا .. ولا يزال يهددها .. وبعد ذلك مؤتمر
القارات الثلاث ليس الا اتفاقا دوليا على تصدير الثورات الى الخارج ..
وما كان يفعله الزعيم جيفارا ليس الا محاولة لتشجيع الثورات
الداخلية على أن يكون لها دور .. واذا كانت المخابرات المركزية
الامريكية قد اغتالت جيفارا وتحاول أن تغتال كاسترو ، فان كوبا
ما تزال نموذجا رائعا لصلابة الضعيف صاحب المبدأ فى مواجهة
القوى الغاشمة !

وكل شىء حلو فى كوبا .. فهى بلاد السكر .. حتى القهوة
لا يشربونها سادة ولا سكر شوية .. انهم يخلطون البن بالسكر ..
ومن ضمن المشاكل الصغيرة كل يوم أن أطلب فنجان قهوة سادة ..
هذا غير ممكن ! وقد اعتدت أن أشربها سكر زيادة .. والاناناس
هنا أجمل من أناناس كثير من البسلال الاسيوية .. وهنا البابايا
التي تشبه الشمام وهى لذيذة الطعم .. والفواكه كثيرة سواء على
مائدة الطعام أو فى السلال الانيقة التى يضعونها كل يوم فى الغرفة ..
وهنا يشربون نوعا من « الروم » اسمه الباكاردى .. ويقال أنه
أحسن أنواع الخمر فى العالم ..

والذى عرفناه بعد ذلك يؤكد لنا مدى التضحية الهائلة التى
بذلها الشعب الكوبى من أجل نجاح هذا المؤتمر .. فالشعب لا يجد
كل هذا الطعام الذى نجده .. انه يضحي به من أجلنا .. ولا كل

هذا الارز انه يعطينا ما زاد عن حاجته .. ولا كل هذه السجائر ..
والسيجارات ولا علب الكبريت المصنوعة في المكسيك .. ولا
زجاجات الكوكا المصنوعة في اسبانيا .. ولا الولاعات الصغيرة
المصنوعة في اليابان .. ولا هذه الحقائب الجلدية المصنوعة في
أوروبا .. ان الشعب الكوبي شعب مثالي .. أراد أن يضرب أحسن
الامثلة لأسمى المبادئ : مبادئ حق تقرير الشعوب لمصيرها !

ولم تخف الصحف الكوبية ذلك . فقد قرأت أن ولايات كوبية
تعلن - بكل سعادة - تنازلها عن نصيبها من الارز لأعضاء الوفود
- منتهى الايثار والتضحية ! - .

وفي مايو سنة ١٩٦١ أعلن كاسترو موقفه بوضوح وشجاعة
وبصورة فاطمة : أنه ماركسي لينيني .. وأنه وشعبه سيتحملان نتيجة
هذا القرار . وكان من نتيجة هذا القرار سياسة التجويع .
التي فرضتها أمريكا عليه .. والحصار الاقتصادي والسياسي
والعسكري على الجزيرة الكوبية ..

وفي أكتوبر من العام التالي التقطت الطائرات الامريكية صورا
لصواريخ سوفيتية في كوبا .. وأعلن الرئيس جون كيندي فرض
الحصار على كوبا والتفتيش الجوى لكل السفن الداخلة والخارجة
منها .. ومنع دخول أى سلاح الى كوبا .. وكانت أزمة عالمية أدت
الى أن يسحب خروتشيف الصواريخ من كوبا .. وكان شجاعة من
كيندي أن يهدد .. وكانت حكمة من خروتشيف أن ينسحب ..
ولم تقع حرب عالمية ثالثة ..

ولا داعى لان يكون هنالك كل هذه الاسلحة في كوبا .. فأمريكا
لا تستطيع أن تهاجمها وأن تغزوها رغم محاولاتها الكثيرة ، فأمريكا
لها مواقع حساسة .. أو أكثر حساسية وكلها واقعة تحت رحمة
السوفيت في أوروبا .. وفي آسيا .. وفي البحر الابيض .. ولا يمكن
أن تغامر أمريكا بغزو كوبا دون أن تتعرض لمواقف أكثر حرجا في
أماكن أخرى من العالم ..

واحساس الكوبيين بأنهم أمريكيان لاتين يجعلهم يكرهون انهم
أمريكان .. وكلمة أمريكي إهانة لا تفتقر .. وأفانيهم الصغيرة
الحماسية تردد ذلك .. وتتسعد بذلك .. فهناك أغنية تقول :
فيديل .. فيديل .. أكيد سوف يعطيهم علة ..

فيديل - آى فيديل كاسترو .. وآى مواطن ينادى كاسترو
باسمه الصغير - آى سوف يعطى الأمريكان علة .. وقد أعطاهم
علة لانظر لها فى التاريخ .. انه الصغير الذى وضع انف الكبير فى
الطين .. وجعله عاجزا عن الانتقام .. وكوبا فى أمريكا تشبه البانيا
فى أوروبا .. واسرائيل فى الشرق الاوسط انها جميعا ركائز قوية
لروسيا والصين وأمريكا ..

واذا كان الروس يرقصون التويست ، ويجدون فى ذلك نوعا من
المرونة وتوسيع الافق أو نوعا من الاعتراف بعالية الفن « فان
الكوبيين لا يرقصون التويست .. وانما يرقصون رقصة مشابهة لها
تماما اسمها « الموزمبيق » وهذه الرقصة قد ابتدع خطواتها كوبي
زنجبى اسمه باييلو الافريقى .. والكوبيون من أقدر الشعوب
الامريكية على الرقص .. ومن أجمل المتع فى الدنيا أن تتفرج عليهم
وهم يرقصون رجالا ونساء .. ان الموسيقى هى دمهم .. والرقص
هو نشاطهم اليومى .. حتى كاسترو .. فنحن عندما ذهبنا نو قد
شعلة التضامن الاسيوى الافريقى .. وكان ذلك ليلا .. وكان الجو
باردا فى قمة أحد الجبال .. وكان المطر ينزل علينا .. تماسكت
الايدي ورحنا نغنى الاناشيد الكوبية الحماسية البسيطة ..
ونرقص رقصة الموزمبيق .. كل الشبان والرجال .. وكاسترو ..
مشدودا من ذراعيه الاثنين .. يرقص .. ويغنى .. ويظل فى نفس
الوقت زعيما وشابا تأثرا .. اذا خطب اهتزت له الملايين .. وهو
لا يخطب الا أربع ساعات واحيانا سبع ساعات ويستقبلونه بالتصفيق
وقوفا .. وكنا نستمع الى خطبه من راديوهات تترجم كلماته الى
ثلاث لغات من بينها اللغة العربية .

وكاسترو رجل بسيط .. فى مظهره .. انه يرتدى الملابس
العسكرية الخشنة .. والحذاء الخشن .. ويحمل سلاحه .. ولا
يكف عن تدخين السجائر الكبير .. وهو ككل لاتينى يحب الخمر ..
ويدعو إليها كل صديق .. وآى انسان هو صديق له وبسرعة ..
ومن الطبيعى ان يكون معبودا للشباب .. وهو أيضا يحب الشباب
ان يلتف حوله .. ولا عدد للفتيات الصغيرات اللاتى يدرن فى فلك
كاسترو .. وهو رجل أعزب بعد ان هجرته زوجته الى أمريكا مع
عشيق امريكى .. ومن المؤكد ان هذه الاهانة التى لحقت به شخصيا
أعمق اثرا من انتصاره الهائل على أمريكا .. انه انتصر على أمريكا
هذا واضح ، ولكن انتصار شخص امريكى واحد عليه قد
أوجعه أكثر !

وقد هربت اخته أيضا الى امريكا .. انها لا تريد ما يريد .. ولا يهتمها ما يهمل .. انه قائد وهى فتاة عادية .. هو رجل غير عادى .. رجل يصنع التاريخ لبلاده وللقارة اللاتينية ، وهى فتاة تريد أن تعيش بلا تاريخ ولا لقب .. ومهما ذهبت وفعلت فلا وزن لها الا لانها اخت كاسترو ! ..

والكوبيون هنا خليط من الاسبان ومن الزوج الافريقيين الذين اتى بهم الاسبان والهولنديون والبرتغاليون رقيقا يزرع الارض .. واختلط البيض بالسود .. ولذلك نجد في كوبا اناسا بيضا وسمرا وازوجا .. ولا توجد أية تفرقة لونية عندهم .. والتزاوج ممكن بين هذه الالوان .. او يحاولون أن يجعلوه ممكنا الى أقصى حد ..

وعندما كنا نذهب الى بيوت الزوج الفقراء .. ونناقشهم وهم يتفرجون علينا فنقول لهم : نحن افريقيون ..

كانت ملامحهم ترفض ذلك .. فهم سود ونحن بيض .. فالافريقى عندهم هو الزنجى .. هوسجين اللون .. امانحن فأفريقيون جغرافيا فقط .. وكنا نقدرهم .. فلا تزال حجتهم أقوى .. هم افريقيون حقيقة ، ونحن متفضلون عليهم بهذه الصفة الافريقية . ولا يمكن أن يشعر الابيض بعباب الأسود الذى يريزح تحت فك بارزو وشعر مجعد وبشرة فى لون الظلام وقضبان السجون !

ولا اعتقد . انى رأيت فى حياتى يوما أجمل ولا أروع ولا أبسط من يوم الثورة الكوبية .. كان ذلك يوم رأس السنة . ونحن نجلس على منصة أو شرفة عالية فى ميدان كبير .. الانوار والموسيقى .. والموائد ممدودة .. وعلى الموائد كل طعام وكل شراب وكل أنواع السجائر وعلى مدى منضدين منا يجلس كاسترو .. وبعينه الضيقة ذات الاحمرار الحقيقى لمح الزجاجات الموجودة على الموائد المجاورة وطلب تفسيرها الى شمبانيا .. وشرب فى صحة كل الشعوب .. والتضامن والشعب الكوبى .. أما الشعب الكوبى فقد افترش الميدان .. ففى الميدان موائد ومقاعد .. وطعام وزجاجات البيرة لاعدد لها .. وسندوتشات اللحوم .. والفاكهة .. مئات الالوف من الناس .. يأكلون ويضحكون .. وأهم من ذلك يرقصون ..

لقد رأيت عيد الثورة الفرنسية فى باريس مرتين .. ومشيت فى الشوارع ازاحم الناس .. ودخلت الى المقاهى ازاحم الناس .. واتجهت الى الميادين أفسح لى مكانا .. وضحكت .. ورقصت ..

وملأت نفسي بسعادة الفرحة بالحرية .. وتفاديت أن أدوس السكارى
على الأرض .. وحرصت على ألا ألقى بنفسى بين اثنين يتعانقان ..
والأدق بابا غير بابى وأن أضع المخدات فوق رأسى عندما أعود إلى
فراشى حتى أخطف ساعة من النوم وسط الصرخات والقبلات
والعبارات المخمورة في الغرف المجاورة وعلى السلالم وفي الاسانسير
.. وتصورت يوم كنت في باريس أنه ليس الروع من ١٤ يوليو في
باريس .. ولكن في هافانا كان الروع وأبسط وأجمل .. أنت مع كل
الناس .. لأحد يعرفك ولا أنت تعرف أحدا .. ولكن مد يدك إلى أى
إنسان تعود يده معك .. مد ذراعيك ويمتلىء حضنك .. بلل شفئك
والقبلات تطير من كل مكان .. أنت واحد من مليون .. والفرحة
تتوزع بالعدل بين الناس ..

وليلة أخرى في مدينة سان فوييجو في مقاطعة أورينت في كوبا
أيضا .. في تلك الليلة أقيمت المهرجانات الموسيقية والغنائية ..
يمكنك أن تقول أن الكوبيين ولدوا ليرقصوا .. أو يرقصون منذ
ولدوا .. أنهم في غاية الرشاقة والسيولة والليونة .. هذه هي
رقصة الموزمبيق .. لم أعلمها من أحد .. ولكن المترجم الذى
اسمه : هوربه - أى جورج فهم ينطفون الجيم ماء - يهتز في مكانه
وبسهولة وفي جمال .. سحبنى .. انسحبت .. هزنى اهتزت
تركنى كلعبة لها زميلك وظللت أرقص حتى نبهنى إلى أن الرقصة
تغيرت وأنه من الضروري أن أغير .. تماما كإنى أسطوانة انتهت
ويجب إدارتها على الوجه الآخر .. واهتز أمامى واهتزت أمامه ..
وتدخل بيننا عدد من الفتيات .. وليس من الضروري أن ترقص
إذا كانت التى تقف أمامك أو وراءك فتاة .. دعها هي ترقص
وتظاهر أنت بالاعجاب بها والفرجة عليها .. وسوف يعذرك الناس
لأن هذه أعظم تحية وأكبر عذر يقبله اللاتين هنا . أن تعجب بفتاة
.. وأن تذهب في أعجابك بها إلى الخروج على التقاليد وعلى الذوق !

فمن مئات السنين فعل أمير العشاق ذلك .. فدون جوان القى
على نفسه جردلا من الماء القلر لكى يضحك معشوقته .. ولما
ضحكت .. رفض أن يغسل وجهه .. ولم يعتذر عن هذا الماء الذى
أصاب في نفس الوقت والديها .. أنه مشغول بها فقط .. وهذه
أعظم تحية !

والأديب العاشق كازانوفا عندما ذهب إلى لقاء محبوبته في بيتها
وجدها مريضة .. ولما سألها عن السبب قالت : أكلت طعاما
فاسدا ..

فانطلق الى المطبخ يبحث عن الطعام الفاسد .. ليدوقه ويمرض
الى جوارها .. ولم يجد الطعام .. فامتنع عن الطعام حتى مرض ..
وجاءت لزيارته .. ولم يكد يراها حتى قفز من سريره دفعة واحدة
وكانه عنبريت خرج من قمقم .. وانهاى على يديها يقبلها .. وعندما
نظر الى الارض ليعرف ما هذا الشيء الذى يلمع .. لم ينتبه الى ان
هذا الذى سحقه بقدمه كان منظار الطبيب الذى سقط على الارض
وزجاجات الدواء في يديه والمنظار تحت اقدام الجميع .. ولم يعتذر
كازانوفا .. فأمام المعشوقة لا عذر ولا اعتذار .. ويكفى ان تكون
هناك ليصبح كل شيء جائزا ..

وتصورت في لحظة اننى اتفلسف وان الافكار التى تتوارد على
رأسى هى انطلاقات شاعرية .. ولكن عندما نظرت الى جوارى
وجدت عجوزا بساق واحدة .. وقد أصرت على ان ترقص ..
واختارت شابا صغيرا .. وكانت أروع وأسرع منه فى الرقص ..
ولما اندهشنا لذلك .. قالت العجوز : اننى قد تصلبت ويبست فى
اماكن كثيرة من نفسى وجسمى .. ولم يبق لى الا الرقص .. !

وسألتنى : هل ترقص ؟

قلت : ليتنى أستطيع .. ان الرقص معك يؤكد عجزى الذى
لا حدود له ..

قالت : الشاب هو الذى يرقص .. عندما كنت شابة كنت أرقص
طول الليل .. وقد استطعت فى ليلة ان أدوخ عشرة من الشبان ..
هم تعبوا وأنا لم أتعب ..

قلت : وتستطيعين الليلة ايضا !

وضحكت .. وكانت ضحكتها سعيدة .. وسعادتها تلى على ان
المرأة لاتشيع من المديح ..

وقال لى أحد خبراء الرقص الكوبيين .. انه ليس من الضرورى
ان تكون استاذا فى الرقص .. المهم ان تتحرك فقط .. اعط اذنك
للموسيقى .. والصوت يقوم بكل العمل فى جسمك ..

وأدركت هذه العبارة فى اذنى على كل الاشكال الادبية والسياسية
والموسيقية : اعط اذنك .. واترك الصوت يقوم بكل العمل !

وأعطيت أذنى للموسيقى الصارخة .. والطببول المدوية ..
وأعطيت عيني للالوان .. أمواج من الالوان .. وأعطيت أنفى ..
لا أظن اننى أعطيت أنفى .. فقد فقدته تماما .. فأنا مصاب
بزكام شديد .. وأعطيت ذراعى وأصابعى لكل ماحولى .. فأنا أحرك
المقاعد وأتساند على الحواجز الخشبية .. وأعطيت فمى لكل الفواكه
.. فأنا مبذول لكل هذه الفيضانات من المشاعر .. أنها تهزنى ..
وتهدئنى .. وتفسلنى وتعصرنى وتنشرنى وتجففنى لتكون نفسى
أكثر بياضا ..

لقد تركت الاصوات والالوان تقوم بكل العمل ..
وعرفت النوم العميق .. واليقظة النظيفة ..
وسألت احدى المرافقات لنا : انت مخطوبة
فقلت : نعم .

قلت : لمن ؟

قالت : لموظف فى وزارة الداخلية ..

قلت : ومتى تتزوجين ؟

قالت : قريبا

قلت : هل هناك صعوبات ؟

قالت : يعنى .

قلت : افهم معنى كلمة يعنى هذه .. لانها من الكلمات القليلة التى
تضايقنى .. لان معناها ان هناك صعوبات ولا داعى لذكرها .. او
لاداعى لان تعرفها .. او ماشأناك انت يا بارد ..

قالت : كل هذا الذى قلت ..

قلت : تقصدين انه لاداعى لان أسألك .

قالت : لا .. اسأل .. وأنا من الواجب ان أجيب ..

ولم أسأل طبعاً .. فقد سدت فمى عبارة «من الواجب ان أجيب»
— أحسست فجأة انها موظفة تقوم بمهمة .. وانها مطالبة بأن تكون
لعيفة وظريفة .. والا تدلى بكثير من المعلومات .. أو بعض المعلومات
فكوبا دولة حساسة .. وتتوقع أن يكون أى انسان عدوا لها .. معان
الذى كنت أريد أن أحرفه هو بعض العلاقات الاجتماعية والعائلية
وكيف تغيرت .. وكيف أقابل بعض المسئولين عن تطوير الاسرة ..

وكيف انتقلت كوبا من الانحلال الى التحرر .. أو كيف انتقلت من التحرر الأمريكى الى التحرر الكوبى أيضا .. وأين ذهبت هذه الالوف من بنات الليل .. وما الذى يفعله الكوبيون أنفسهم فى هذه الكباريات الكثيرة جدا الموجودة فى هافانا وأريد أن أعرف منها متى بدأت تجربة الفتيات اللاتى يقمن بتنظيم المرور فى الشوارع .. انها كانت واحدة منهن .. ولكن لما سمعتها تقول : « أنه من الواجب أن تجيب .. » أحسست أن هذه الاسئلة الشخصية فوق الواجب، وانها اذا كانت قد راعت اللوق فى كل تصرفاتها ، فلماذا لا أفعل ذلك ؟ وفعلت ذلك وسكت ..

واتجهت الى بائعة سجائر .. وما أكثر السجائر وعلب الكبريت هنا .. ان أكثر أعضاء الوفود الذين غيروا عملاتهم فى السوق السوداء قد عادوا بالوف من علب السجائر الفخمة وعلب كبريت الشمع .. وسألتها :

— طبعاً من أصل اسباني ؟

فقلت : هه — أى نعم — وأنت ؟؟

قلت : مصرى .. أفريقى ..

قالت : هه — ومعناها : ياه

قلت : لا تصدقين ؟

قالت : هه — ومعناها : العب غيرها !

قلت : احلف لك ..

قالت : هه — ومعناها : على ماما ؟

قلت : أريد كتاباً فى اللغة الاسبانية ..

قلت : هه (مع هزة من كتفها ناحية اليسار .. الذى تصادف أنه ناحية الباب الخارجى ولم يكن قصدها أن أخرج بسرعة) — ومعناها : لا يوجد

وذهبت الى المترجمة ورويت لها ما حدث .. وسألتنى عن الفتاة وعن أوصافها .. ولما عرفت ضحككت جدا وقالت : انها ملكة جمال هافانا .. وهى تتصور انها أجمل واحدة فى كوبا وفى أمريكا .. وان أى انسان يتحدث إليها فهو يعاكسها فقط .. وان كلمة « هه » من أهم الكلمات التى تستخدمها وهى معروفة بذلك ويسمونها هنا سينوريتا « هه » ؟ ! ..

وسألتني : ما الذي كنت تريده منها ؟
قلت : كتابا في تعلم الاسبانية ..
قالت : هه .. - ولم أعرف معنى هذه الكلمة ..
قلت : ماذا تقصدين ؟
قالت : هه - اى هذه حيلة .

قلت : والله ابدا حتى اسألى فلانا واشرت الى أحد الزملاء ..
وضحكنا .. . واندعشت جدا كيف اننى وحدى الذى كنت أبحث
عن كتاب وكل هؤلاء الخبثاء قد عرفوا بسرعة انها ملكة جمال
نودهبوا يداعبونها ..

وقلت للمترجمة : ولكنى لا أراها جميلة ..
قالت : هه ومعناها : اطلع من دول ..
قلت : اقسم لك انها ليست جميلة .
قالت : اسمع !

وسمعت منها مالىس غريبا على عقلى .. فمن المألوف أن يذهب
الناس في معاكسة الفتاة الجميلة فيهاجمونها ويغيظونها ويؤكدون لها
انها لاجميلة ولا حاجة .. . وهى محاولة لهز ثمار الشجرة .. أو
لزعزعة ايمانها بنفسها .. فقد تحب المرأة من يكرهها .. أو من
يعذبها أو من يحتقرها .. أو من يزهد فيها .. أو تطارد من يهرب
منها .. تماما كما تهرب ممن يطاردها ..

ولم يكن هناك مجال لكلام .. فأنا زائر عابر وأنا عندى ما يشغلنى
وهو كثير .. . وأنا عضو فى أكثر من لجنة .. . وعندنا تقارير وكتب
.. . وعندنا لقاءات مع أدباء واساتذة جامعة .. . وأعضاء الوفود ..
وعندى موعد آخر مع البرتو مورافيا .. الذى تتأكد صداقتى له فى
كل مرة ألتقى به .. فى ايطاليا وفى القاهرة وفى ألمانيا .. وهنا
فى كوبا ..

سألته : ما رأيك فى كوبا ؟
قال : تجربة رائعة ..

قلت : هل تكتب عنها ؟ ..

قال : اعتقد ذلك ..

قلت : كتب عنها سارتر وسيمون دي بوفوار ؟

قال : انه يكتب كثيرا ..

قلت : وفرانسواز ساجان أيضا ؟

قال : وأعجبك ما كتبه .

قلت : لم يعجبني من كل ما كتبه غير كتابها الاول : مرحبا
أيها الحزن ..

قال : وانت أيضا رأيك فيها هكذا .. ان زوجتي من رأيك ..
اسألها ..

قلت لها : لم يعجبك من مؤلفات ساجان سوى قصتها الاولى ..

قالت : نصف هذه القصة .. وهى لم تضيف جديدا لا فى النصف
الثانى .. ولا فى بقية القصص الاخرى ..



ولم يخل مؤتمر القارات الثلاث الذى كان مرهقا للامصاب
لمناقشاته الطويلة وخلافاته الحادة حول الزعامة وعلى مكان مركزه
الدائم .. وموقف الوفد الصينى .. والوفد السوفيتى .. والوفود
الافريقية .. ففى داخل اللجان كانت الترجمة فورية والى لغات
اوربية متعددة .. والى اللغة العربية أيضا .. فمثلا أصر
مندوب اليمن أن يلقى قصيدة طويلة .. وهذا الشاعر أبيض الوجه
أخضر العينين قصير القامة .. وذهب الى المنصة وأخرج شريطا
طويلا من الورق وراح يلقى قصيدته .. وامسك الحاضرون
السماعات التى يستمعون منها الى الترجمة .. وراحوا يحركونها
يمينا وشمالا ويتلفتون حولهم .. واشتركوا فى ابتسامة غامضة ..
ثم فى ضحكة عالية .. وراحوا يسألوننا عن هذا الذى يجرى أمامهم
ولا يفهمونه . ونحن لانجد مانقوله ؟ انه يلقى قصيدة .. ولا يمكن
ترجمتها الى أية لغة .. لانها كلام فارغ أولا .. ولانها تتلاعب
بالألفاظ .. ومن أهم ألعابها اللفظية كلمة : كوبا .. فالقصيدة
تقول : جئنا الى كوبا .. ولم نشرب كوبا من الماء ، وانما شربنا

اكوابا من الكرم والضيافة .. الى آخر مثل هذا الكلام البايخ الذى لا يمكن ترجمته ولا داعى لذلك !

ولكن الناس يريدون أن يعرفوا .. ولم يعرفوا لان احدا لم يقل لهم شيئا .. وكل ما قيل لهم : انه من اليمن ..

آه من اليمن .. آه كده .. - وترددت مثل هذه الكلمات وكانت ردا .. أو مبررا لعدم الرد !

وكان الوفد الصينى عصبيا جدا .. وكان عدده كبيرا .. ولم أفهم فى كل ماقرات أو سمعت سببا لهذه العصبية .. ربما كان السبب هو ان الصينيين اذا رأوا الروس احترقت أعصابهم .. وكان الروس هناك دائما وفى منتهى النشاط ..

واذكر - مرة واحدة - اننى لقيت أحد أعضاء الوفد الصينى وحييته أو حيائى ولم نقل شيئا . وضحك هو ولم يقل شيئا .. وعاتبنى احد الزملاء : كيف تفعل ذلك .

قلت : وماذا فعلت ؟

قال : ألم تسمع ما الذى قاله هذا الرجل فى جلسة الصباح .

قلت : لم أسمع ..

قال : لقد لعن المؤتمر من أوله لآخره ..

قلت : اننى لا أراه قد لعننى بصفة خاصة .. ومع ذلك فما الذى قلته له .. أو قاله لى .. لقد حيائى فى صمت .. وحييته فى صمت أكثر .. هو ضحك وهز رأسه .. وأنا لاضحكت ولا هزرت رأسى قال : لكن كان عندك استعداد انك تكلمه ..

قلت : ولا يزال عندى استعداد لان أتكلم مع أى أحد من كل الدين تراهم امامك ..

قال : يا عم أنا مالبش دعوة .

قلت : هه - محاولا أن أقلد الفتاة الكويتية بائعة السجائر ..

هه .. وانصرفنا .. كل الى حال سبيله .. ولم يكن لنا سبيل الا حول الفندق وفى المحلات الصينية التى تبيع الأحجار الكريمة وبأسعار معتدلة .. خصوصا حجر التراكواز وحجر الجباد الغالى الثمن ..

وانتهت بسرعة خاطفة الرحلة الى كوبا .. من الغرب الى الشرق .. وفي النفس تلك الصورة الجميلة العميقة .. وفي الفم طعم جوز الهند الذي شربناه .. والاناناس الذي التهمناه .. والسجائر التي تعلمت من كاسترو ان اضعها في فمجان القهوة الى ان يلين احد طرفيها ثم تكسره بأسنانتنا .. وقد امتلأت الحقايب بالكتب والمجلات وعلب الكبريت وعلب السجائر وبالعقود والخواتم الصينية والاقمشة الحريرية .. ولا اظن اننى رايت القباقيب في كوبا .. ولكن وجدت ستة ازواج منها في حقيبة صديق سعودي كان ضمن المؤتمر .. ربما كانت هذه اول صورة للاحادية التي لبسها الاسبان عندما اكتشفوا كوبا .. بعد ان اهتدى اليها البحار الايطالى كولبوس .. ولم استرح لوجود هذه القباقيب في الطائرة الا عندما تركها الزميل السعودى في غرفته في فندق اوكرانيا بموسكو ونحن في طريق العودة الى القاهرة ..

وفي غرفتى في فندق اوكرانيا امسكت قلما وورقة وكتبت :
« عزيزى الرئيس كاسترو » ..

انها بداية تقليدية سخيفة ..

افضل منها : عزيزى فيديل كاسترو ..

او لادامى لكلمة كاسترو هذه .. انهم ينادونه بكلمة فيديل ..

اذن اقول : عزيزى فيديل .. تذكر يوم رأس السنة يوم عيد ثورتك الشابة المجيدة ونحن نأكل معا .. ونستعير الكثير من سعادتك ونحن نتحدث عن كوبا. هل تذكر انك قدمت لى سيجارا كبيرا جدا .. اكبر من سيجار تشرشل .. انه سيجار كاسترو .. والقيت بما معنى من سيجار فى الارض - احتقاروا لشأنها .. وقلت لى بالحرف الواحد : مادمت مع كاسترو فاشرب هذا السيجار ..

واعطيتنى سيجارا ضخما .

وقلت لك : واذا لم اكن مع كاسترو ..

فقلت انت : يبعث لك كاسترو بالسجائر ..

وقلت أنا : وإذا لم يبعث كاسترو ..
وقلت انت : يبعث لك كاسترو بأن تجيء لتسدخن هذا
السيجار معه ..
قلت أنا : هذا أفضل ..
ومددت يدك وصافحتني .. وكانت هذه المصافحة تعاقدا
واتفاقا بيننا ..
والآن يا أيها العزيز فيديل : انا في شوق الى سيجارتك ..
فما رأيك ؟ .. »
ومزقت الخطاب لان المعنى لا يعجبني .. ولا يريحني .. ويكفى
اننى رأيت وسمعت وقرأت واستمتعت واحتفظت بذكريات جميلة
حارة ، لبلاد جميلة وشعب حار .. وليس السيجار وقصب السكر
والاناناس الا أهون ما فيها ..



فهرس الكتاب

ص

٣ الى اى مكان

الكونغو بلا لومومبا

١٢ وقفزت الى السرير x

٣٣ اى خدمة يا ولدى x

٤٣ اهلا امين باشا x

صنع فى ألمانيا

٥٨ اكبر غلطة لغوية x

٦٦ صنعت فى أمريكا : الجليطة x

ايطاليا للمرة العشرين

٧٤ صوفيا وأخواتها x

٨٧ طليانى بين الصعايدة x

أكثر من سويسرا

٩٨ يعنى ايه : خوف x

١٠٦ هدد النقطة الجاهلة x

من الكافيار الى الاناناس وبالعكس

١١٦ كنى الملك دائما x

١٢٦ رقص وبن وثورة x

اشتراكات كتاب اليوم

البريد العادي :

مليمة

المجموعة الاولى :	١٠٠٠ ر	ج.ع.م . واتحاد البريد العربي
المجموعة الثانية :	١٥٠٠ ر	باقي دول العالم

البريد الجوي :

مليمة

المجموعة الاولى :	٢٥٠ ر	(سوريا - لبنان - الاردن)
المجموعة الثانية :	١٥٠٠ ر	(دول اتحاد البريد العربي)
المجموعة الثالثة :	٣٠٠٠ ر	(دول أوروبا)
المجموعة الرابعة :	٥٠٠٠ ر	(أمريكا الشمالية - الهند - دول جنوب افريقيا)
المجموعة الخامسة :	٦٠٠٠ ر	(أمريكا الجنوبية - اليابان)



هذا الكتاب

بلاد الله خلق الله

بقلم انيس منصور
اللهم اجعلنى فراشة فى كل
حديقة ..

حوتا فى كل محيط ..
اسدا فى كل غابة ..
واجعل لى مقعدا فى كل
طائرة بين قارة وقارة .. وفى
كل صـاروخ بين الارض
والقمر ..

وحتى عندما ابقى فى مكانى
فان عقلى يدور فى راسى ،
وراسى يدور حولى ، وجسمى
يدوخ بين الاجسام ..

وحتى عندما اكون وحدى
فاننى مسافر دائما بين كتب
الرحلات والمغامرات الفكرية
والثورات العاطفية .. بين
المحبين والشهداء .. فانا لا
اقوى على ان اكون فى مكان
واحد .. ولا استطيع ان اقف
عند كلمة واحدة فى سطر
واحد .. ولا عند سطر واحد
فى كتاب .. ولا عند كتاب
لمؤلف واحد فى عصر واحد ..

فانا المسافر بلا
وانا الحقاتب بلا
وانا المسافر بلا
اننى المسافر دائما
والاشخاص والمصو
او اتمنى ان اكون
آمين .

انيس

مكتبة الشاوى

٥ فصل ١٩٦٩

٥٧ ش صفيح زغلول اسكندرية
٢٦٣٢٤ ق

Bibliotheca Alexandrina



0564255

التمن ١٠ قروش